الاحتلال الأسباني لطرابلس ودور الليبيين في مقاومته

(916-937 هـ / 1510 – 1530 م)

(*)الدكتور/ ماهر عبد الغني دعوب

المقدمـــــة ،،،

عرفت المكتبة التاريخية ألواناً مختلفة من الدراسات التي تناولت التاريخ الليبي بالدراسة والتحليل منذ أقدم عهوده حتى عصرنا الحالي ، ومنذ أن بدأ أبو التاريخ "هيريدوت " كتابة التاريخ ، ظل لليبيا دائماً فصل ومكان في تاريخ هذه المنطقة الهامة من العالم .

والحقيقة التي لابد من الاعتراف بها أن أغلب الدراسات العلمية الجادة التي كتبت عن تاريخ ليبيا كانت باللغات الأجنبية ، وأن الذين كتبوها أجانب تفاوتت مقاديرهم في العلم ، وحظوظهم من الاطلاع ، وظروفهم التي كتبوا فيها ، فهم بين رحالين دفعتهم المغامرة إلى السعي وراء المجهول ، وبين مكتشفين كانوا الطلائع الأولى للاستعمار الأوروبي ، وبين علماء متخصصين وقناصل ، ورسميين ، رأوا وسمعوا ، أو اطلعوا ونقبوا ثم كتبوا رسائل ويوميات وكتب جمعت الكثير من الحقائق عن تاريخ ليبيا ، وأماطت اللثام عن جوانب من الحياة فيه كان يسوده الغموض ، أو كانت تنتظر اليد التي تلامسه وتتعرف عليه وتبرزه واضحاً أمام الأنظار .

ولعل من حسن الطالع أن تسجل لمدينة طرابلس مادة تاريخية طيبة ، تشكل في مجموعها صوراً متعاقبة متلاحقة لمختلف الفترات التي مر بها تاريخ تطور المدينة والبلد. وتعد لفترة الاحتلال الإسباني لطرابلس [1] أهمية تاريخية بارزة ، حيث أظهرت قوة الصراع الصليبي الإسلامي الذي اتخذ ذرائع عدة وأشكالا متنوعة ، ووجوها مختلفة ، كما أنها المنطلق الذي انطلقت منه فيما بعد المساهمة البحرية الليبية في أحداث البحر المتوسط والدفاع عن الوجود الإسلامي فيه .

أسباب اختيار الموضوع :- ولعل ماد فعني للكتابة في هذا الموضوع أمران اثنان:-

أولاهما: مرور أكثر من خمسمائة عام علي الحدث ، فأحببت أن أشارك بعمل علمي متواضع لإبراز ما تعرضت له بلادنا من هجمات استعمارية ، ودور الليبيين في التصدي لهذا العدوان، ونتائج ذلك .

(*) عضو هيئة التدريس بجامعة محمد بن علي السنوسي الإسلامية

[1] يذهب بعض المؤرخين من إطلاق اسم طرابلس الإقليم على ليبيا البلد ، وهذا يعد من قبيل الاعتراف بأن حكم العاصمة هو في ذات الوقت حكم لسائر البلد ، وهي ما يسمى بنظرية المركز والأطراف .انظر د. محمود أبوصوة : مقدمة في تاريخ المغرب الاجتماعي والاقتصادي ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، ليبيا ، 1992، ص88 ،89.

وثانيهما : تكليفي من قبل لجنة كتابة موسوعة تاريخ المغرب العربي للتصدي لهذا الموضوع .

والفرضية التي انطلقنا منها لكتابة هذا البحث : هل واجه الإسبان حين غزوهم طرابلس مقاومة شديدة من قبل المقاومين المحليين . أم أنهم وجدوا طرابلس لقمة سائغة فدخلوها دون مقاومة تذكر وبدون أية خسائر ؟.

ان طبيعة الموضوع هي التي تفرض المنهج المتبع لذلك سيعتمد الباحث علي منهج الاستقصاء والتحليل لنبين صحة الفرضية من عدمها ،

وتكمن أهمية الموضوع ، في ابرازه موضوع المواجهة المسلحة بين قوة دولية سياسية مجهزة ومنظمة ذات عقيدة ، وقوة محلية عقدية أخرى تعيش ظروفاً موضوعية مغايرة تماما لما تعيشه القوة الاولي، ونتائج ذلك علي الصعيدين المحلي والدولي .

ولعل الاهداف والغايات المرجوة من كتابة هذا البحث تكمن في الوصل الي ابراز كيفية التخطيط والاعداد للغزو، وشدة العدوان وقوته ، وكيف ان الوازع الديني الصليبي لعب دورا مهما في تجييش الكوامن وراء التحرك والانطلاق ، وكذاك ابراز دور المقاومة المحلية وتحركها بدافع الجهاد والذود عن الدين والارض والعرض ، والأثار التي ترتبت علي عملية الغزو. ونطاق الدراسة الجغرافي والزمني يحدده مجال الدراسة بجنوب البحر المتوسط وشمال أفريقيا في مطلع القرن السادس عشر الميلادي .

تمهيد تاريخي

- **طرابلس تاريخياً وجغرافياً**

طرابلس مدينة قديمة قدم التاريخ ومعروفة في المصادر التراثية الأولى بعظمتها ، وجمالها وتنظيمها وبتسمياتها المتعددة ، وتجمع المصادر العربية والإفرنجية في وصفها في القرن السادس عشر الميلادي بأنها " من أهم بلدان الشمال الأفريقي وثغوره البحرية وأجملها مباني وأحصنها أسواراً " [1] فهي كما يقول شارل فيرو : " لم تكن هناك أي مدينة على طول الساحل المتوسط تنافسها جمالاً وعظمة " [2]، ذلك أن حكومات الدول المتعاقبة على ولايتها اهتمت بها من حيث السياسة والمعمار والاقتصاد ، **فسياسياً** كانت السيطرة علي هذا الإقليم تعني السيطرة على كامل التراب المجاور ، وحتى وإن لم تكن السيطرة فعلياً فهي بالتبعية ، " ذلك أن بقية الإقليم كان يحكم من قبل أهله حكماً محلياً يسيطر عليه شيوخ القبائل يعاونهم في ذلك أعيان القوم ووجهاؤهم . والقانون السائد

[1] انظر : التيجاني : رحلة ، تقديم وتحقيق ، حسن حسني عبد الوهاب ، المطبعة الرسمية ، تونس ، 1958 ، ص 273

[2] شارل فيرو : الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي ، ترجمة د. محمد عبد الكريم واخي ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ، طرابلس ، ليبيا ، ط3 ، 1984م ، ص 72 .

فيه هو العرف ، والنظام تكونه العادة ، والأمن فيه يحفظه توازن كتل السكان الاجتماعية ، وخوف كل جماعة فيها من الجماعة الأخرى " .[1]

أما **اقتصادياً** فإن الريادة على مناطق ساحل ليبيا وجنوبها لطرابلس التي يمتد نفوذ تجارها حتى السودان ، حيث كانوا يسيّرون القوافل التجارية محروسة بالرجال المأجورين ، أو بالحرمة والمكانة التي يتمتع بها التاجر بين القبائل التي ينتمي لإحداها هو أو شركاؤه أو مستخدموه .[2]

لذا فإن طرابلس لم تكن تنافس مدن جارتها في عظمتها فحسب ، بل وحتى في ثرواتها يقول مابل لومس تود في مقارنته بين طرابلس وبعض مدن الشمال الإفريقي : " إن تونس أقل حيوية من طرابلس بكل غنى الحياة فيها " [3] ، ويذهب كثيرون إلى أن تونس من حيث أنها أكبر كانت أغنى في أثاثها ومرافقها ، غير أن طرابلس كانت تفوقها بما تعج به من الذهب والفضة واللآلئ وغيرها من السلع الأخرى بسبب ازدهار تجارتها .[4] يقول الرحالة الهولندي مارمول Marmol الذي زار طرابلس في أوائل القرن 16 م أن طرابلس كانت أثناء زيارته لها تتمتع بشيء من الاستقرار والرخاء وتتوفر فيها أسباب الحياة المدنية وقال : " إن التجارة في طرابلس نامية ونشطة جداً والمدينة ... مزينة بالمخازن ، والدكاكين غاصة بأنواع البضائع والسلع " [5]، ويقول أيضاً : " إن شوارعها أكثر انتظاماً من شوارع تونس " [6]، ويظهر من كلام مارمول أن الصناعات في طرابلس كانت نامية جداً وخاصة صناعة النسيج فقد ذكر : " أن الطرابلسيين يعرفون 150 طريقة في صناعة المنسوجات الحريرية "[7]. ويعتقد ، حتى ومع تقدم صناعة آلات النسيج لم يصل الأمر إلي الرقم الذي ذكره المؤلف ، ويحتمل أن مارمول عنى بالقول أن هناك 150نولا لصناعة النسيج .

وفي السنين الأربعين التي سبقت احتلال الأسبان لها امتازت طرابلس بنصيب وافر من الثروة ورفاهية العيش [8]، هذه الحالة المترفة التي تهيأت لسكانها عادت عليها بأوخم العواقب ، إذ يذكر شارل فيرو : " بأنهم تخنثوا إلى الحد الذي انصرفوا فيه عن حمل السلاح وهم الذين كانوا فيما سلف

---

[1] محمد بازامه : ليبيا في عشرين سنة من حكم الأسبان 1510- 1530، منشورات مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ليبيا ، 1963م ، ص 23 .

[2] نفس المرجع والصفحة.

[3] مابل لومس تود : أسرار طرابلس ، ترجمة : دار الفرجاني للنشر ، طرابلس ، ليبيا ، ط1 ، 1968م ، ص 32 .

[4] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 72 .

[5] مارمول كرنبال : إفريقية ، ترجمة ، محمد حجي ، محمد زنيبر ، وآخرون ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، 1984م ، جـ3 ، ص 120 .

[6] المصدر نفسه ، ص 121 .

[7] نفس المصدر والصفحة .

[8] انظر الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، دار المعارف، مصر ، 1963م ، ص279.

يمتشقونه على الدوام ، بل إنه بلغ منهم النفور من حمله حداً أن المارة منهم في الشارع إن لمحوا رجلاً مسلحاً أشاحوا بوجوههم إلى الجهة الأخرى لكي لا يروه " [1]، ذلك أن حاكمها في سنة 1492 م الشيخ عبد الله بن شرف لم يكن له من عمل سوى الاهتمام بالجانب السياسي والاقتصادي للبلاد فازدادت حركته العمرانية ونشطت التجارة وازدهرت حياة الناس وكثرت الخيرات . [2] فتوفر للسكان مزيداً من رغد العيش بإدارته العادلة " [3] واستمرت طرابلس على هذا المنوال من النمو الاقتصادي ، وتحديداً الازدهار التجاري والمالي حتى إبان الاحتلال الأسباني لها يشهد بذلك تقرير القائد الأسباني "دون بدرو دي نافارو" الذي بعث به إلى نائب الملك بصقلية والذي جاء فيه : " سيدي ، إن هذه المدينة هي أكبر مما كنت أتصور ، ورغم أن الذين يشيدون بها يتحدثون عنها حديثاً حسناً ، ولكني أرى أنهم لم يقولوا إلا نصف الحقيقة . ومن بين المدن التي رأيتها في هذا العالم لم أجد مدينة تضاهيها سواء في تحصيناتها أو نظافتها حتى لتبدو مدينة إمبراطورية أكثر منها مدينة لا تنتمي إلى أي ملك خاص " [4] هذه الشهادة التي سجلها القائد الأسباني إنما كانت بعد احتلاله للمواقع المغربية المتقدمة من الشمال الأفريقي ، وفي ذلك دلالة على المكانة التي كانت لطرابلس بين المواقع الساحلية [5] .

لقد كانت طرابلس عشية الغزو الأسباني لها مدينة تجارية بحق يتردد عليها تجار العرب من الشمال الأفريقي و تجار الأتراك ، والبنادقة ، والجنويين ، والصقليين ، والمالطيين [6] وغيرهم .

وتبرز أهمية هذه المدينة بروزاً واضحاً في أحداث البحر المتوسط في فترة الاحتلال الأسباني إذ تبدو قاعدة من القواعد الرئيسة التي يجري الصراع حولها في تلك الفترة الهامة من تاريخ البحر المتوسط [7] ، فكان لمركزها الجغرافي ، والطمع في الاستيلاء على ثرواتها [8] عوامل وجهت أنظار وعقول المحتلين إليها .

يقدم لنا أحد رجال الحملة الأسبانية باتيستينو دي تونيس وصفاً لمدينة طرابلس في ذلك الوقت فيقول : " تقع في سهل ، مربعة الشكل ، ويحيط بها سور يمتد أكثر من ميل ، ولها سوران مزدوجان تحف

---

[1] شارل فيرو ، مصدر سابق ، ص 68 .

[2] انظر مارمول ، مصدر سابق ، جـ 3 ، ص121.

[3] شارل فيرو : مصدر سابق ، ص 67 .

[4] أيتوري روسي : طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا ، ترجمة وتقديم : خليفة محمد التليسي المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ، ليبيا ، ط2 ، 1985م ،ص 19 .

[5] خليفة التليسي: حكاية مدينة طرابلس ، دار العربية للكتاب، ليبيا ، تونس ، ط2 ، 1985م، ص62 .

[6] أيتوري روسي ، مصدر سابق ، ص 22 ، 23 .

[7] التليسي : مرجع سابق ، ص 60 ، 61 .

[8] الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، مرجع سابق ، ص 279 .

بهما خنادق منخفضة ضيقة ، السور الأول صغير ومنخفض ـ وهـو مـا عبر عنه التيجاني بالفصيل ـ ، أما السور الثاني فهو مرتفع جداً وضخامته متناسبة مع الأبراج وهي ذات مواقع دفاعية قوية ضخمة ، ومحاطة بالبحر من جهاتها الثلاث ، ولها ميناء ممتاز قادر على أن يستوعب 400 سفينة ... ويسكنها أكثر من عشرة آلاف نسمة من العرب وبعض اليهود " [1]، وأنها مزودة بالمياه ، [2] وقلعتها من الداخل تحتوي على مساكن صالحة خاصة بالحكام والضباط والحامية . [3] أما القصر فكان أشبه بجزيرة يحيط بها الماء من جميـــــــــــع الجهات ويربطه بالمدينة جسر متحرك يمد نهاراً ويرتفع ليلاً . [4]

وبذلك نستخلص من هذا الوصف المعاين أن طرابلس كانت تتميز بموقع جغرافي وحربي ممتازين ، وأنها تتمتع بسماء صافية ، وهواء صحي ، ومناخ معتدل غير معرضة للأمراض السارية أو الأوبئة [5] ، وأنها مدينة تتميز بالنظافة التي نوه بها كثير من الرحالة العرب والأجانب عبر مختلف الفترات والمراحل التاريخية ، وأنها كانت محصنة تحصيناً جيداً قوياً منيعاً في أسوارها التي تحيط بها وأبراجها العالية ، وهذا كله يؤكد الأهمية البحرية والصلات التي قامت بينها وبين الموانئ العربية في الشرق والغرب ، والموانئ الأوروبية في الشمال [6] ، الأمر الذي جعل الأسبان يتكالبون عليها ليجعلوها قاعدة متقدمة لجيوشهم وعيناً ترقب من خلالها المناطق الإسلامية مشرقاً ومغرباً .

أسباب احتلال الأسبان لطرابلس .

تعددت دوافع احتلال طرابلس وتنوعت ، غير أن السبب الرئيس الذي تصدر جل المصادر التاريخية التي أرخت لمدينة طرابلس هو سبب مغرق في الخيال ولا يرقى إلى مستوى الواقعية ولا يقنع بال الباحثين الأكاديميين، والغريب أن جل المصادر أوردته ، فقد ذكره كل من الرحالة المغربي أبو سالم العياشي [7] ، وابن غلبون [8]، والنائب الأنصاري [9] والناصري الذرعي [10]

---

[1] نقلاً عن التليسي : مرجع سابق ، ص 62 ، 63 .

[2] أيتوري روسي : مصدر سابق ، ص 51 .

[3] كوستانزيوبرنيا : طرابلس من 1510- 1850 م ، تعريب : خليفة التليسي ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، مصراته ، ليبيا ، ط1 ، 1985م ، ص 33 .

[4] عمر محمد الباروني : الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس ، مطبعة ماجي ، طرابلس ، 1952م ، ص 74 .

5 انظر ما جاء في تقرير فرسان القديس يوحنا : الباروني ، المرجع نفسه ، ص 81 .

[6] انظر في ذلك التليسي : حكاية مدينة طرابلس ، مرجع سابق ، ص 63 .

[7] ماء الموائد أو الرحلة العياشية ، طبعة حجرية ، فاس ، 1316هـ ، ج 1 ، ص 66 ، 67 .

[8] التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار،تحقيق ،الطاهر الزاوي ، القاهرة، 1349هـ،ص 94 .

[9] المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، د.ت ، ص 184 ، 185 .

[10] الرحلة الناصرية ، طبعة حجرية ، فاس ، 1320هـ ، ص 74 .

ومحمود مقديش [1] وهو السبب ذاته الذي اعتمده ايتوري روسي في كتابه ، واعتمده كذلك شارل فيرو في حولياته . [2] تقول الرواية : " إن أهل مدينة طرابلس كانوا – فيما مضى – أهل دنيا عريضة فيما يقال ، وليس بهم عناء ولا لهم بالحرب خبرة ، فبينما هم كذلك ، قدمت سفن للنصارى تجاراً بسلع كثيرة فنزلت بالمرسى ، فخرج إليهم رجل من التجار الطرابلسيين فاشترى منهم جميع ما لديهم من السلع ونقد لهم ثمنها ، ثم استضافهم رجل آخر ، فصنع لهم طعاماً فاخراً ، وتناول لؤلؤة ثمينة ودقها دقاً ناعماً في مدقة على مشهد من ضيوفه ثم درّ مسحوقها على الطعام قائلاً : " هذا مقام الفلفل " فلما فرغوا قدم لهم دلاعاً – بطيخاً – فطلبوا سكيناً لقطعها فلم يجد في داره سكيناً ، ولا عند جاره إلى أن خرج للسوق فأتى بسكين ، فلما رجع النصارى التجار إلى بلدهم سألهم ملكهم عن حال البلدة التي قدموا منها فقالوا : ما رأينا بلدة أكثر منها مالاً وأقل سلاحاً ، وأعجز أهلها عن مدافعة العدو فاحتلها النصارى في ليلة واحدة " .

والذي يتبين من هذه الرواية الآتي :-

أولاً : نفور الطرابلسيين من مرأى الأدوات الحادة بحيث لم يكونوا يستخدمون السكاكين حتى على موائد الأكل ، الأمر الذي أدهش التجار الأسبان فتطلعوا إلى معرفة السبب ، فاكتفى الطرابلسيون بالإجابة بأن تأذيهم من مرأى الأسلحة قد جعلهم لا يستعملون السكاكين حتى بالنسبة لقطع الفاكهة والخبز ، **ثانياً :** أثارت هذه الرواية موضوع ثراء الطرابلسيين الطائل الأمر الذي جعل لعاب العاهل الأسباني يسيل ودفعه عقله إلى التفكير في مسألة الاحتلال ، غير أن هذه الرواية تظل لدينا موضوع نقد وجدل وردّ وذلك راجع إلى جملة عوامل منها :-

1. اعتمد بعض الباحثين هذه الرواية لتصوير الواقع القائم لمدينة طرابلس قبيل الغزو الأسباني ، ولكننا نشعر أن هذه الصورة أكثر مطابقة لواقع الحال عند هجوم الجنويين عليها ، ذلك أن ما أورده النص السابق من استيلاء النصارى عليها في ليلة واحدة بلا كبير مشقة لا يتفق مع واقع المقاومة العنيدة التي أبداها سكان المدينة للغزو الأسباني على نحو ما أكدته روايات القادة الأسبانيين أنفسهم الذين أشرفوا على قيادة الحملة ضد هذه المدينة . وهذا ما يؤكد يقيناً أن هذه الرواية إنما تصوُّر لواقع المدينة عند هجوم الجنويين الذين استولوا عليها بالحيلة والغدر [3] ، الأمر الذي يشعرنا بضعف السند الذي نقل منه المؤرخون السابقون. [4]

---

[1] نزهة الأنظار في عجائب التاريخ والأخبار ، تحقيق ، علي الزاوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1988م ، جـ 1 ، ص 619 ، 620 .

[2] شارل فيرو : الحوليات ، مرجع سابق ، ص 68 .

[3] التليسي : حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص 60 .

[4] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 43 .

2. من البديهي أن هذه الرواية ليست سوى نسج خيال شعبي ساذج إن أرضت مؤرخي ذلك العصر إلى الحد الذي جعلهم يكتفون بها تعليلاً لمجيء الأسبان إلى طرابلس وسبباً لاستيلائهم عليها ، فإنها لسذاجتها لا ترضينا ، بل إنها على العكس تدفعنا دفعاً إلى البحث عن الدافع الحقيقي والأسباب المنطقية لهذا العدوان الأسباني على طرابلس في غير مصادرنا العربية التي أتت بها .[1]

3. إن تبرير الروايات العربية للاحتلال الأسباني ينظر إليه فقط من الزاوية المحلية نظرة ينقصها الشمول والربط ببقية أحداث الشمال الأفريقي التاريخية ، وهذا لا يعد عيباً في الرواية " فابن طرابلس إنما يهمه من الأحداث ما يتصل به وبتاريخه فيما يرويه مشافهةً وسماعاً وليس هذا بشأن المصدر المقابل والذي تتصل أحداث تاريخه بالغزوة في مجموعها من وهران حتى جربه بعد طرابلس فهو إنما ينظر إليها نظرة الشمول بحكم موقعه منها وموقفه فيها ودوره ، والحيادية في الحكم تقتضي منا تقدير الموقفين واعتبار النظرتين ".[2]

4. أما عن فائدة هذه الرواية الخيالية الأسطورية الشعبية فيمكن أن نستخلص منها الآتي :

أ / أنها تص،ور لنا مدى البذخ والثراء الذي كانت عليه البلاد في الفترة التي سبقت غزو الأسبان ، وأن الطرابلسيين كانوا يفخرون بثرواتهم على نحو ما فعل التاجر الذي صنع الطعام الفاخر للأسبان .

ب / تسجل لنا هذه الرواية شعور سكان مدينة طرابلس بفداحة التقصير في إعداد وسائل دفاعهم عن بلادهم مما أدى إلى غلبة الأسبان عليهم نتيجة ضعف الإمكانات وندرة السلاح .[3]

ج / كما تسجل لنا أن الحركة التجارية في طرابلس كانت نشطة ومزدهرة مع السواحل الأوروبية وأن سفن النصارى كانت تتردد عليها بالسلع التي ينقد التجار ثمنها .[4]

د / أن أهل المدينة يتصفون بالجود والكرم وحسن ضيافة الغرباء الأمر الذي حدث مع التجار الأسبان .

و / حرص التجار الطرابلسيين وخاصة المثرين منهم على إنشاء صداقات مع تجار أجانب وتكوين علاقات تسودها المصلحة المشتركة .

ي / العامل الاستخباراتي نجد له نفس عند التجار الأجانب ، فحين رجوعهم قدموا ما رأوا وما سمعوا من معلومات قيمة حول المدينة وثرائها ودفاعاتها لحكامهم والمسئولين .

---

[1] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 40 .

[2] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 45 .

[3] المرجع نفسه ، ص 41 .

[4] التليسي : حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص 60 .

هذا وقد تعرضت هذه الرواية للنقد والتمحيص من قبل العديد من الباحثين العرب المحدثين منهم، المؤرخ الطاهر الزاوي [1] ،والمؤرخ التليسي [2] ،وبازامة [3] وغيرهم .

وأشاطر العديد من المؤرخين في أن دوافع الاحتلال الإسباني لمدينة طرابلس **تكمن في الآتـــــي :**

1 . عامل الجهاد " القرصنة "

يذكر أحد المؤرخين أن حاكم طرابلس الشيخ عبد الله بن شرف الملقب بالمرابط قد أعد سفناً شراعية صغيرة مدفوعاً بالتعصب الديني للقيام بأعمال القرصنة ضد النصارى في حوض البحر المتوسط [4] ، الأمر الذي أثار حفيظة الأسبان فنوبوا ملك صقلية " مارتن الأول " بمطاردة القراصنة والقضاء عليهم ، وحينما لم يفلح باشر الأسبان مسألة الغزو والاحتلال بأنفسهم [5] للقضاء على هذا الخطر الذي أضحى يهدد سفنهم التجارية وسيادتهم في البحر الأبيض . غير أن هذا الرأي الذي طرحه شارل فيرو لا يمكن أن يناقش بهذه الصورة وأن يسلم به على علاته ، ذلك أن كلا الطرفين الإسلامي / المسيحي كان يزاول مسألة "القرصنة " لأنها كانت ضرورية للحماية وبسط النفوذ والحفاظ على الهيبة ، وكانت وسيلة العصر الحربية المتقدمة [6] .

يقول الأستاذ جانو " Gianno " لقد كانت القرصنة شراً عاماً ، وأن جميع الاتفاقيات حتى القرن الرابع عشر كانت تتحدث عن القراصنة المسيحيين أكثر من حديثها عن القراصنة المسلمين [7] ، مما يعني أن صيغة القرصنة لم تكن معروفة لدى جانب المسلمين بصورة جلية تؤلب عليهم الرأي العام العالمي .

لقد كانت شؤون القرصنة تنظم باتفاقيات دولية ، بل إنها كانت الموضوع الرئيس للاتفاقيات في ذلك الوقت ، وهذا يضفي عليها صبغة من الشرعية المتعارف عليها ، ويعطيها معنى الحالة الحربية التي تنظمها نوعية العلاقة بين الدولة والأخرى . [8]

---

[1] الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، مرجع سابق ، ص 286 .

[2] التليسي : نفس المرجع والصفحة .

[3] بازامة ، ليبيا ، مرجع سابق ، ص 41 وما بعدها .

[4] شارل فيرو : الحوليات ، مرجع سابق ، ص67 .

[5] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 67

[6] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص12 .

[7] V. S. Gianno , Tripoli nelle tradizioni storico – commerciali (Atti del ceogar . dell 'Asmara . p 353) وانظر : أيتوري روسي : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 9) .

[8] كوستانزيوبرنيا : نفس المصدر والصفحة .

إن موضوع أعمال القرصنة التي يقوم بها الطرابلسيون كما نعتتهم المصادر الغربية يمكن أن يفسر من ناحيتين اثنتين :-

أولهما ، أهمية طرابلس الاستراتيجية والهيبة التي كانت تتمتع بها بين الدول الأوروبية دليل ذلك " الاتفاقيات التي كانت تعقد بينها وبين بعض الدول الأوروبية تتعهد فيها هذه الدول بتقديم مبالغ سنوية تجنباً لإثارتها وتأميناً لسفنها " [1]

ثانيهما ، إن القرصنة في تلك الفترة لـــــم تكن أعمال نهب وسلب كما صورتها بعض المصادر الغربية ، ولم تكن وسيلة من وسائل اللصوصية والمغامرة ، وإنما كانت نوعاً من الجهاد حددته طبيعة المرحلة وأسلوباً في الصدام حتمه تطور الوسائل في ذلك الوقت ، وميداناً للصراع بين الخصمين المتقابلين ، [2] بدليل أن مراكب طرابلس كانت تلتقي في عرض البحر المتوسط مع مراكب تونس والجزائر فتتبادل التحية والمجاملات معها ولا تمسها بسوء ، ولو كانت القرصنة نهباً وسلباً لما كانت تميز بين المسلم وغير المسلم ولكان همها الغنيمة أينما كان مصدرها . [3] وبالتالي ننفي صفة القرصنة عن الأعمال الجهادية للبحارة الطرابلسيين ونعدها ردة فعل تجاه ما يقوم به الآخر في الطرف الجنوبي للبحر المتوسط من أعمال سلب ونهب واستفزاز للمسلمين وعقيدتهم وحباً في امتلاك خيراتهم وأموالهم ، يقول شارل فيرو أن ملك صقلية سنة 1471 طارد " القراصنة المغاربة ، وأنه في إحدى المرات رسا بسفنه على شواطئ جزيرة جربة ونهبها [4] الأمر الذي يعني أن ما قام به الطرابلسيون من أعمال لا تدخل في سلك القرصنة والتهديد بقدر ما كانت رد فعل طبيعي وأعمال جهاد ودفاع عن الأرض والعرض ، مما جعل المسيحيون في أوروبا يفكرون جدياً في إزالة خطر المقاومين المسلمين من عرض البحر المتوسط .

2 . العوامل الدينية " التعصب الديني المسيحي "

كان النصف الثاني من القرن 15م من أهم فترات التاريخ للشعوب المسلمة والمسيحية حيث ظهرت فيه قوتان متقابلتان : العثمانيون ، والأسبان . بدأت الأولى من الشرق واتجهت نحو الشمال الغربي ترمي إلى فتح أوروبا وإدخال الإسلام إليها ويتزعمها العثمانيون الذين استطاعوا في سنة 1453 م فتح القسطنطينية على يد السلطان العثماني محمد الثاني الملقب بـ: ـ الفاتح ـ لفتحه هذه المدينة ، فانتهت بذلك الدولة الرومانية الشرقية وزالت بزوالها السيادة الرومانية على الحوض الشرقي

[1] المصدر نفسه ، ص 9 .

[2] المصدر نفسه ، ص12 .

[3] نفس المصدر والصفحة .

[4] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص67 .

للبحر المتوسط .[1] هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تفطن الأسبان إلى ما ترمي إليه الدولة العثمانية فعزموا على عرقلة هذا الزحف لئلا يضربهم في عقر دارهم ، لذلك بدؤوا في خطة منظمة أخذت طريقها من أقصى الغرب واتجهت نحو الشمال الأفريقي ترمي إلى تنصيره ففي سنة 1492م سقطت غرناطة في أيدي الملك فرديناند الكاثوليكي فتم على إثرها السيطرة على الأندلس ، واضطر المسلمون بالهجرة إلى الشمال الأفريقي ، وبهجرتهم ازدادت حدة الصراع بين أسبانيا المسيحية وأقطار شمال أفريقيا المسلمة ، خاصة عندما خالفت أسبانيا شروط المعاهدة التي وقّعتها عقب تسليم غرناطة وكان من شروطها ، احترام عقيدة المسلمين وأملاكهم وتقاليدهم ، وبدافع الروح العدائية التي يكنها الكاردينال " اكسمنس " Xemenes ضد المسلمين والإسلام ، وبتحريض منه أصدرت الحكومة الأسبانية قراراً سنة 1499م بتعميد أبناء المسلمين أو طردهم [2] ، وصدر مرسوم ملكي من الملكين الكاثوليكيين فرديناند ملك أراجون ، وأزابيلا ملك قشتالة سنة 1503م يقضي بطرد جميع المسلمين من شبه جزيرة إيبيريا [3] ، وذلك تحت مرأى ومسمع الكنيسة التي باركت ذلك " [4] . وبهذا انتهى الصراع بين الثنائي الإسلامي / المسيحي في جنوب غرب أوروبا لصالح المسيحية ، وتأثرت مدن الشمال الأفريقي بذلك فكانت مدن وهران ، والجزائر وبجاية ، وتونس ، وطرابلس أول ما تعرض من مدن الشمال الأفريقي لغزوات الأسبان في حملات منظمة تحت قيادة الكونت " بدرو نافارو " Conde Pedro Navarro " ، وذلك في العقد الأول من القرن 16م .[5] وبالعودة إلى الشرق نجد أن الدولة العثمانية قد انتهت في عهد السلطان سليم الأول بالسيطرة على برقة عام 1517م أي بعد استيلاء الأسبان على طرابلس القلعة بسبع سنوات ، وهكذا بدأ الصراع المسلح على طرابلس .

اتخذ التحدي الصليبي في هذا الصراع لنفسه خطاً جديداً وذلك بعد أن مني بالهزائم المتكررة في الشرق ، ويفهم من الأحداث أن الدول المسيحية في ذلك الوقت كانت تتصرف بدوافع النعرة الصليبية وأنها كانت تلون نظرتها إلى العالم الإسلامي بلون واحد لا فرق بين الشام في المشرق وطرابلس في المغرب [6] .

---

[1] انظر بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 17 .

[2] انظر د. محمد أبو عجيلة : النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الاسرة القره مانلية ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ليبيا ، ط1 ، 2006م ، ص 34 .

[3] انظر: محمد مخلوف :تتمة شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الفكر ، د.ت ، ص 150 وانظر الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 47 .

[4] نظر حسن السائح : الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، لدار البيضاء 1986م ، ص 332

[5] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 20 ، 22 .

[6] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 10 .

إن رغبة الأسبان - الصليبية - في الانتقام من المسلمين ومطاردتهم ازدادت بعد سقوط الأندلس وقد أشركوا معهم قادة العالم المسيحي في ذلك ، وانضم إليهم أنصار البابوية في روما ، وشارك معهم كل الطوائف النصرانية وفي مقدمتهم الكاثوليك .[1] فكانت رغبة الانتقام واضحة في أعمالهم الهمجية التي ارتكبوها في كل بلد إسلامي تمكنوا من احتلاله فما كانوا يوقرون شيخاً ، ولا يرحمون ضعيفاً ، ولا يترفعون عن قتل الأطفال والقيام بأعمال السلب والنهب .[2] ولم يكن أحد من الأوروبيين يجرؤ على مزاحمة الأسبان في ذلك ، وفي زعامة هذه الحركة الصليبية لأنهم قد عقدوا العزم على استئصال كافة العرب والمسلمين من كل المناطق التي احتلوها فكان احتلالهم لطرابلس يصب في هذا المعنى [3] وهو معنى دلت عليه رسالة التهنئة التي بعث بها رئيس رودس القسيس أمريكو دامبواس Americo D' Amboise رئيس منظمة الفرسان القديس يوحنا في رودس إلى ملك أسبانيا فرديناند ، حيث انتهز هذا القسيس الفرصة وأعلم الملك الكاثوليكي بالانتصار الذي أحرزه الأسطول الروسي المسيحي على أسطول سلطان مصر قونصوا الغوري في خليج الأياسي Laiazzo ، ورجا من الملك أن يتابع فتوحاته في أفريقيا حتى أراضي مصر آملاً في أن تتصل قواتهما هناك [4] للتبشير بالدين المسيحي ونشر ديانته في البلدان التي يضع الأسبان عليها أيديهم [5] . لذلك كان هدف الأسبان من احتلالهم طرابلس أن تكون قاعدة أمامية في محاولة الاستيلاء على مصر وتهديد الإمبراطورية العثمانية ، وتسديد الضربة القاضية لمعاقل الإسلام ، ونشر المسيحية ، والقضاء على المسلمين

3 .العوامل السياسية والإستراتيجية

تلعب العوامل السياسية غالباً دوراً هاماً في توجيه الحملات العسكرية والقيام بعملية الاحتلال ، خاصة إذا كان الطرف المقابل يغري على ذلك ، فطرابلس كما صورتها المصادر التاريخية في عهد الشيخ عبد الله الملقب بالمرابط لم تكن ذات قوة منيعة حيث همل حاكمها تحصينها وتقوية أبراجها وأسوارها [6] بعلة ألا تتجه إليها أنظار الدول الأجنبية وحتى لا يطمحوا في الاستيلاء عليها ، يقول الباحث الباروني : " إن الشيخ عبد الله لم يكن له الاستعداد اللازم للقيام

---

[1] ابن غلبون : التذكار ، مصدر سابق ، ص 134 .

[2] الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح ، مرجع سابق ، ص 278 .

[3] انظر الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 5 .

[4] المرجع نفسه ، ص 45 .

[5] الباروني : الاسبان ، مرجع سابق ، ص 5 .

[6] النائب الأنصاري : المنهل العذب ، مصدر سابق ، ص185 ، وابن غلبون : التذكار ، مصدر سابق ،ص95 وانظر شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 75 ، وانظر الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح ، مرجع سابق ، ص 279 .

بمثل هذا المجهود الجبار من حشد الرجال والعمال ، وجمع المال الكافي لأعمال البناء والترميم والتحصين ورفع القلاع التي يمكن أن تصمد أمام ضربات مدفعية أسطول قوي " [1].

غير أن هذا الكلام يظل محط نقاش ذلك أن الروايات الشعبية السابقة تبين مدى البذخ والثراء الذي عليه أهل طرابلس عشية الغزو الأسباني لها والذي جعلها طعمة سائغة للمحتل . فكيف تعيش عصر الزهور والثراء ولم يكن للحاكم فيها المال الكافي لأعمال البناء والترميم ، ألم يكن هناك دخل لطرابلس من الضرائب التي تؤخذ على التجارة والأراضي الزراعية وغيرها ؟ . مما يجعل كلام الباحث الباروني فيه نظر . والذي يبدو أن الحاكم تنقصه الخبرة والكفاءة والرغبة والعزيمة أكثر منها مسألة إمكانات مالية .

كما يضيف لنا ابن غلبون سبباً سياسياً آخر جعل من الأسبان يعجلون بمسألة الاحتلال وهي ضعف الدولة الحفصية التي في تونس ، وما أحرزه الأسبان عليها من نصر في احتلال وهران وبجاية ، [2] الأمر الذي أثر سلباً في عدم دعم روح المقاومة في طرابلس . وقد انتهز الأسبان فرصة وقوع الخلاف بين أحمد الحفصي ووالده الناصر في سنة 916هـ .1510م . وهي سنة الاحتلال – مما جعل الأول يفر إلى الأسبان مستنجداً بهم على أبيه [3] ، وليس هذا بغريب فالتاريخ قديماً وحديثاً أحداثه مليئة بمثل هذا التخاذل من المرضى وضعاف النفوس

إن سواحل الشمال الأفريقي كانت دائماً محطة لنفوذ كل الدول القديمة التي طلبت السيادة على البحر المتوسط ، وعرضة للاحتلال من كل شعب يتطلع إلى التفوق والسيادة [4] . وعلى أهل طرابلس وغيرهم دفع ضريبة الموقع ، فاحتلال طرابلس إذاً يبدو شيئاً ضرورياً للأسبان لأسباب سياسية واقتصادية ودينية . [5]

كما أن من الأسباب السياسية الأخرى التي عجلت بموضوع الاحتلال أن طرابلس تعد أقوى مركز يتخذ لمواجهة الخطر العثماني في البحر المتوسط ، لأنها أكبر مدينة في شرقي الشمال الأفريقي ، وأقوى نقطة للدفاع عنه حين الهجوم عليه من الشرق ، وأقرب نقطة لتمويل ونجدة الجيوش التي تغزو الشرق [6] ، وبالسيطرة عليها وعلى الموانئ الهامة في أفريقيا يمكنهم ضمان

---

[1] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ،ص14 .

[2] ابن غلبون : التذكار ، مصدر سابق ، ص 135 .

[3] انظر الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي ، مرجع سابق ، ص 279 .

[4] ايتوري روس : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 17 . الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 47

[5] F . Braudel (Les Espagnols et L' Afrique du Nord de 1492 a 77) in (Revue Africaine) 1928, pp. 184-233-351-428.

[6] ابن غليون : التذكار ، مصدر سابق ، ص 135 .

السيطرة التامة على شمال أفريقيا كله ، وبالتالي يمكنهم التوسع في الداخل وإسكان أكبر عدد من المسيحيين في هذه المراكز [1] .

ويعلـل بازامـة أن الغايـة السياسـية مـن احـتلال طـرابلس هـي اكتسـاب الملـك فرديناند الكاثوليكي شعبية في العالم المسيحي تمكنه من التفوق على خصمه ومنافسه في فرنسا " شارل الخامس " في صراعهما من أجل الزعامة على العالم الأوروبي الذي كان تحت تأثير النفوذ الكنسي والتعصب الديني ضد الإسلام في القرن 16م ، وأن أعمالاً كهذه تدفعه إلى التعلق بمن يرضى تعصبه الديني ويزيد منه بملاحقة الإسلام والمسلمين [2] .

أما عن العوامل الإستراتيجية ، فقد وضع الأسبان في مخططهم أنه بالاستيلاء على طرابلس يمكن تكوين قاعدة أمامية تلجأ إليها وتحتمي بها قواتهم نظراً لموقع طرابلس الإستراتيجي الهام وميناؤها الحصين ، يؤكد هذا اهتمامهم بتحصينها ، والمحافظة عليها حين احتلالهم لها ثم تخليهم عنها لقوة أخرى هي قوة فرسان القديس يوحنا الذين استمروا في تحصينها وبذلوا في سبيل ذلك الكثير من الجهد والمال وما يعزز ذلك ويؤكده الرسالة التي بعثها فرديناند إلى الكونت " بدرو نافارو " والتي يقول فيها : " ....وأعتقد حسب ما أعلمتموني في عدة مناسبات أنه إذا أردنا الاستقرار في أفريقيا ينبغي أن نحتل مدن وهران وبجاية وطرابلس ، وإذا آلت الأخيرة إلى أيدينا يجب أن نسكنها بأكملها بالمسيحيين ، لأن المغاربة " المور " هم أصحاب كل ما تبقى من البلاد وإذا سمحنا لهم بالإقامة في مدن السواحل فلم نتمكن من الاحتفاظ بممتلكاتنا زمناً طويلاً ، ويجب أن تكون الأماكن الثلاثة إذن وانتظاراً لما هو أحسن محفوظة بحماية قوية بين المسيحيين ولا يسمح لأي عربي بالدخول إليها " [3] . أي تعليل هذا ؟ أي تعليل لمدن يحتلها الأسبان لتكون حامية لهم دون العرب الذين يجب ألا يسمح لهم بالدخول إليها إذا لم تكن هذه المدن الساحلية قواعد بحرية للقراصنة من المسيحيين ، وأي معنى قصده فرديناند من عبارته " انتظاراً لما هو أحسن " لا يعني إلا أمله في الحصول على قواعد أمامية أقرب منها إلى الشرق حيث الأسطول العثماني وثغوره الحصينة [4] .

إذن لم يكن مجيء الأسبان إلى طرابلس واستيلاؤهم عليها حسب رأي بازامة بدافع توسع استعماري ، ولا بدافع الكشف الجغرافي ، ولا كان بدافع الرغبة في السيطرة على الأسواق المحلية واحتكار التجارة فيها لصالح الأسبان دون غيرهم ، وإنما كان مجيئهم إليها لاتخاذها قاعدة أمامية تلجأ إليها سفن القراصنة الأسبان والمسيحيين . وبذلك نشعر بأن الاحتلال الأسباني لطرابلس يدخل

---

[1] د. محمد أبو عجيلة : النشاط الليبي ، مرجع سابق ، ص 41 .

[2] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ص 75 .

[3] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 29 – 30 .

[4] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 48 ، 49 .

كما قال " روسي " ضمن مخطط يعطي لطرابلس أهمية خاصة باعتبار دورها وموقعها في البحر المتوسط ، وهو الدور الذي تكشفه وتدل عليه العهود التالية التي ازدهرت في البحرية الإسلامية في المتوسط ، وكان لطرابلس وأسطولها مشاركة واضحة بارزة جعلت القائد الإسلامي الكبير درغوت باشا يتخذ منها مركزاً لنشاطه وجهاده البحري [1] .

فضلاً عن ذلك الثروة التي تنعم بها طرابلس خلال هذه الفترة والتي يمكن للقوات الأسبانية الاستفادة منها لتمويل الجيوش والأساطيل الأسبانية لصعوبة تمويلها من أسبانيا مباشرة ، وعندئذ تستطيع أسبانيا تأمين المناطق التي استولت عليها في شمال أفريقيا [2] .

كما يهدف المخطط الأسباني في التوسع والاستيلاء على طرابلس السيطرة على ثغور البحر المتوسط الجنوبية ، ومنع الأسطول العثماني من الوصول إليه حتى لا يهدد مستعمرات أسبانيا في جنوب إيطاليا مثل مملكة صقلية ، ونابلي ، وسردينيا وطرق مواصلاته إليها [3] .

أما عن العوامل الاقتصادية والتجارية فهدف الأسبان واضح وجلي من وراء احتلال طرابلس ظهر ذلك من خلال المبالغة في وصف التجار الأسبان لحكومتهم ما تتمتع به طرابلس من ثروة طائلة ، وما فيها من نعم وإمكانات : " فكان ذلك مشجعاً للأسبان على التعجيل باحتلالها " [4] .

كما كانوا في ذات الوقت يهدفون من عملية الاحتلال الاقتراب من الحوض الشرقي من البحر المتوسط وامتلاك الموانئ والأسواق فيه لاحتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التي ترد إليها عن طريق القوافل البرية أو عن طريق البحر الأحمر من جنوب آسيا ، ولمزاحمة البندقيين والجنويين الذين استغلوا أسواق الشرق الأدنى مدة طويلة واحتكروا أسواق أوروبا ببضائع الشرق [5] .

وهكذا نرى أن جميع العوامل كانت مشجعة ومشاركة في عملية الاحتلال وأن تغليب عامل على عامل يظل من الصعوبة بمكان .

استعدادات الحملة

ما إن تم للأسبان المسيحيين السيطرة علي آخر معاقل المسلمين في الأندلس بسقوط غرناطة سنة 1492م ، حتى واصلوا اللحاق بهم وذلك عملاً بوصية الملكة " إيزابيلا " التي تهيب فيها بتعقب

---

[1] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 9 .

[2] انظر الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 27 ، وانظر كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق،ص 22 وانظر د. محمد أبوعجيلة : النشاط الليبي ، مرجع سابق ، ص 41 .

[3] الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح ، مرجع سابق ، ص 279 ، وانظر بازامة : ليبيا ، ص 76 ، وانظر د. محمد أبو عجيلة : المرجع السابق ، ص 48 .

[4] ابن غليون : التذكار ، مصدر سابق ، ص 136 .

[5] الباروني : الأسبان ، مر جع سابق ، ص 6 ، 7 .

المسلمين في شمال أفريقيا ونشر الديانة المسيحية بين سكانه [1] . لذا عملت الحكومة الأسبانية جاهدة في تنفيذ ذلك ، ففي سبتمبر سنة 1505م أنزلت أولى الحملات الأسبانية في ميناء المرسى الكبير غرب الجزائر ، فسيطرت على حجر باديس ، وفي 17 مارس 1509م استولى القائد بدورنافارا على ثغر وهران ، وفي يناير من عام 1510م ، احتل بقواته مدينة الثغر " بجاية " ، ولقد ارتكبت القوات الأسبانية في هذه الغزوات من أعمال النهب والقتل ما يعد صفحة سوداء في سجل جيشها في ذلك العهد [2] ، ومن بجاية شرع في الاستعداد لاحتلال مدينة الثغر " طرابلس " والتي بالاستيلاء عليها سيكون قد تمت السيطرة على سواحل الجنوب للحوض الغربي [3] ، ويتبين من هذا السير المرحلي أن الأسبان كانوا إزاء خطة تقضي بالاستيلاء على المراكز البحرية على الساحل الشمالي لأفريقيا [4] .

إن الغزو الأسباني لطرابلس يختلف في مضمونه وتركيبته عن الحملات السابقة للأسبان ، فأسبانيا لم تقم بمفردها في هذا الاحتلال ، وإنما شاركت معها قوات إيطالية وجعلتها تحت رعاية نائب ملك صقلية وهو ما لم تفعله في غزوها للمدن الأخرى [5] ، وقد كان الكاردينال أكسمينس أسقف طليطلة ، ورئيس وزراء فرديناند الكاثوليكي قد جعل من نفسه داعياً وملهماً لهذه الحملة التي اتخذت لون الحركة الصليبية ، ولعل رسالة الملك فرديناند التي أرسلها إلى قائد الحملة الكونت بدورنافارا ما يفيد ذلك ، وقد ارتأينا أنه من الأفيد تثبيت الرسالة والتي يوجد نصها كاملاً في دار محفوظات بلدة " سيمانكاص Simancas " الأسبانية والتي أوردها " فيرو " وهو نص يمدنا بتفصيلات هامة عن النظام السياسي الذي اختطه العاهل الأسباني الملك فرديناند الكاثوليكي تجاه الأملاك الأسبانية على ساحل أفريقيا ، ويشير إلى أن الحملة التي سيرت ضد طرابلس كانت مبيتة أصلاً **وها هو نص الخطاب** :

" مونزون ، في مايو سنة 1510م

" إلى الكونت دون بيترودي نافارا ، القائد العام لجيشنا ومستشارنا : لقد تلقيت رسائلكم الثلاث المؤرخة في 3 مايو ، والتي وجهتموها إلي من بلنسية ، وذلك الخطاب المؤرخ في الخامس من نفس الشهر ، والذي حمله إلي حارس بلاطي " ميجويل كابرير MiGuel Cabrera " ، ولقد

---

[1] انظر عمر علي بن إسماعيل :انهيار حكم الأسرة الفره مانلية في ليبيا ، 1795م - 1835 م ، نشر مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ليبيا ، 1996م ، ص 17 .

[2] انظر د. محمود حسن منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي ، نشر مكتبة الفكر، ط 2 القاهرة ، 1978م ، ص 44 ، وانظر د. محمد أبو عجيلة : النشاط الليبي ، مرجع سابق ، ص 36

[3] بازامة ، ليبيا ، مرجع سابق ، ص 50 .

[4] التليسي :حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص61 .

[5] بازامة ، نفس المرجع والصفحة .

أصدرت أوامري في هذه الساعة بأن يطلب من ألونزو سانشيز Alonzo Sanchez كتابياً بالعمل فوراً على طحن ألف كيس من القمح كانت قد أرسلت إليه من مملكة بلنسية ثم يبعثها إليكم في بجاية ، وستتسلمون في نفس الوقت فطائر البشماط المصنعة من بعض هذا الدقيق ، وهو مئونة تكفي ثمانية آلاف رجل لمدى خمسة عشر يوماً على الأقل ، ونظراً لنقص الطعام في بلنسية حالياً ، فإنني قد كاتبت كذلك " فارقاس Vargas " خازن مدينة مالقة ، وطلبت منه على الخصوص أن يبعث إليكم حال تسلمه لمكتوبي كل المؤن التي في إمكانه الحصول عليها ، حتى تتزودوا بها في أسرع وقت ولكي تتمكنوا من الرحيل إلى طرابلس ، كما أنني قد أمرت نفس الخازن أن يبعث إليكم عشرة آلاف دوكات ، وإن شاء الله سيتمكن الأسطول عند وصوله إلى صقلية من استكمال تموياته ، ذلك أن نائب ملك هذه المملكة قد أخبرني كتابياً بأن كل شيء جاهز وأعتقد كما سبق لكم أن ذكرتم لي في خطاباتكم مراراً أننا إذا ما أردنا أن نحافظ على وجودنا في أفريقيا ، فإنه يتحتم علينا أن نحتل مدن وهران وبجاية وطرابلس ، وفي حالة احتلالنا لهذه الأخيرة فإنه يجب علينا أن نعمرها برمتها بالنصارى ، وإلا فإن المغاربة بما أنهم يسودون بقية مناطق البلاد إذا ما سمحنا لهم بالسكن في مدن الساحل فإنه سيستحيل علينا أن نحتفظ بما احتللناه وقتاً طويلاً ، وإذاً ، فإنه انتظاراً لما هو أفضل يتحتم أن تعسكر في المدن الثلاثة المذكورة حامية كبيرة من النصارى وألا نسمح لأي مغربي أن يطأها . إن الشيء الأساسي الذي لابد لك وأن تضمنه نصوص هذه المعاهدة مع ملك بجاية أو أية معاهدة أخرى قد تعقدها مع المغاربة ، هي مسألة الإمدادات . إذ يتحتم علينا أن نكون قادرين على الصمود في أفريقيا اعتماداً على موارد بلادنا نفسها ، ذلك أن صمودنا فيها أطول وقت ممكن استناداً على استجلاب كل شيء من أسبانيا يعد أمراً مستحيلاً ، لأن ذلك لن يلبث أن يجعلنا نفقد ثمرة جهودنا الراهنة . لذلك فإنه من الأهمية بمكان أن ننظم الأمور على نحو يجعلنا قادرين دائماً على الاحتفاظ بمواطئ قدم التي استحوذنا عليها ، وأن نحتفظ بها دون أن نضطر إلى تمويلها من الخارج ، وذلك مثلما سبق لنا وأن فعلنا حتى اليوم ، وعلينا مستقبلاً ألا نتدبر سوى المصروفات التي قد تكون ضرورية ، والتي سنعمل على إرسالها على شكل إمدادات سريعة يناط بها الجيش أو الأسطول وذلك تبعاً لما ستتطلبه الظروف [1] .

التوقيع فرديناند

[1] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 71 .

والملاحظ على هذا الخطاب الآتي :

1. أنها لم تكن الرسالة الوحيدة ، فقد أشار الخطاب إلى عدد من الرسائل الأخرى التي تدور حول الموضوع .
2. تعرض هذا الخطاب لمشكل تموين جند الحملة وإمدادهم ، والتدبيرات التي اتخذت لحلها ، والاحتياطات التي يجب على القائد الكونت بدورنافارا اتخاذها في المستقبل لضمان استمرار التموين بطرق أيسر من إمدادها من أسبانيا ذاتها أو من إيطاليا .
3. الاحتياطات العسكرية التي يجب اتخاذها لحماية هذه القواعد البحرية كعدم السماح للعرب بدخولها أو التجول فيها ناهيك بسكناها [1] .
4. في الخطاب نفس استعماري استيطاني ، فالاحتفاظ بمواطئ أقدام في المناطق التي تم الاستحواذ عليها تتطلب سياسة ذكية تجعل مسألة تموينها من نفسها أمراً مطلوباً عاجلاً
5. يوضح الخطاب الروح التبشيرية لنشر الديانة المسيحية ، والثقافة الغربية " يتوجب علينا أن نعمرها برمتها بالنصارى " .

لذا فقد عمل الكونت بدورنافارا بهذه التوجيهات وأخذ يستجمع جيشه للتقدم نحو طرابلس . ففي 7 يونيو غادر الكونت بدرو بجاية على رأس 8000 رجل واتجه إلى جزيرة فافينيانا Favignana القريبة من صقلية في انتظار بقية سفن مملكتي نابولي وصقلية وجندهما الذي سيشترك معه في هذه الحملة [2] . واستقدم العقيد دييجو البلنسي Diego De Valencia من نابولي ذخيرة ومؤناً ، وقابل في صقلية الكونت بدرو نافارا الذي كان ينتظره [3] . وفي طريقه إلى طرابلس عرج حسب الخطة على جزيرة قوزو Guzo إحدى جزر مالطة حيث اصطحب معه عدد من الأدلاء المالطيين الذين لهم معرفة سابقة بطرابلس وخبرة بسواحلها ، وتولى دليل الخبرة بالحملة المالطي جوليانو أبلا Giuliano Abellla وغادر الجميع ومعهم عدد 120 سفينة شراعية بين كبيرة وصغيرة . وانضم إلى سفن الحملة خمسة مراكب من مالطة مسلحة تسليحاً جيداً [4] على متنها كلها 15ألف جندي أسباني ، وعدد 3000 جندي إيطالي ، وعدد من المغامرين الأوروبيين [5] ، واقتربت الحملة من شواطئ طرابلس حتى مسافة أربعة فراسخ من الساحل ، ونظراً لانخفاض ولصعوبة تبين تضاريس هذا الساحل ، فإنه قد أرسل العقيد البندقي فيانيلو Vianelo الذي كان

---

[1] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 52 ، 53 .

[2] المرجع نفسه ، ص 54 ، وانظر روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 18 .

[3] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 73 .

[4] ايتوري روسي: طرابلس،مرجع سابق ، ص 18 ، التليسي : حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص 61 .

[5] نفس المرجع والصفحة .

يعرف البلاد بغية استكشاف مرفئها واقترب هذا الضابط منها كثيراً إلى حد أن سكان المدينة لمحوه [1] .

إن قوة الحملة التي تحرك بها الكونت بدورنافارا توحي بتوقعاته عن القوة المحلية في المدينة ، وإلا ما كان له أن يتحرك بمثل هذا العدد الكبير من القطع البحرية والرجال لو لم يكن على علم بطبيعة أوضاعها الدفاعية الحصينة واستعداد أهلها للحرب والنضال ، خاصة وأنه يعتمد في حملته على عناصر قيادية من الإيطاليين والمالطيين ، وفي ذهن الإيطاليين الجنوبيين من سكان صقلية تجربتين سابقتين مع هذه المدينة في العهد النورماني [2] ، وهذا ينفي أن سكان طرابلس غير مستعدين لمواجهة هذه الحملة وإلا ما كان لبدورنافارا أن يتجهز بهذا القدر الضخم في كل شيء . ثم أن التجار الجنويين الذين كانت لهم تجارة كبيرة مع المدينة كانوا قد نصحوا الأهالي بوضع ممتلكاتهم المنقولة في مأمن وأخطروهم قبل شهر أو يزيد بقرب وصول الأسطول الأسباني ، فما كان من حاكم طرابلس الأمير الشيخ عبد الله بن شرف وأهلها إلا أن يعيدوا إصلاح التحصينات ، وأن يزيدوا من تكثيف الحراسة على مداخل المدينة وأبوابها وقد كلف بهذه المهمة عرب بادية الدواخل [3] .

مرحلة الغزو والاحتلال :

انطلاق الحملة

يقول الرحالة الهولندي مارمول Marmol في كتابه عن أفريقيا : أن قائد الحملة العسكرية الأسبانية على طرابلس الكونت بدرودي نافارو ، قد اضطر لمغادرة بجاية والتوجه إلى طرابلس ومهاجمتها قبل الموعد الرسمي المحدد لذلك ، ذلك أن ظروفاً اضطرته لفعل هذا منها : أن جنوده البالغ عددهم 15 ألف جندي والمتمركزين في بجاية أصابهم وباء يقال له الطاعون فتك بهم فتكاً ذريعاً وتفشى بينهم وذهب بأنفس الكثيرين منهم ، حيث كان يفتك يومياً بحوالي مائة جندي ، فحملت هذه الكارثة القائد الأسباني على الرحيل فوراً إلى طرابلس تاركاً بجاية بيد نائبه وسكرتيره العام مع عدد من الجنود لحمايتها [4] .

تحرك الأسطول من بجاية ، وكان يقوم بمهمة إرشاده أحد المالطيين الذين لهم خبرة بسواحل البحر المتوسط ويدعى " جوليانو أبيلا " [5] ، ويزودنا تقرير ينسب لشخص مجهول شارك في أحداث طرابلس بتفصيلات حول وصول القوات وعملية النزول والاحتلال بقوله : " وصل الأسطول

---

[1] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ص 73 .

[2] التليسي : المرجع السابق ، ص 62 .

[3] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 73 .

[4] إفريقية ، مرجع سابق ،ص133.

[5] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 25 .

الأسباني إلى مشارف طرابلس يوم 24 / يوليو سنة 1510م ، وعلى الفور أُرسل الكولونيل البندقي " جيرولامو فيانيللو Girolamo Vianello " الذي كان قد أقام في طرابلس من قبل بوصفه تاجراً ، وكان على معرفة تامة بالمدينة لكي يجمع المعلومات عن الوضع العام ، وليتأكد عما إذا كانت قد وصلت نجدات تركية أما لا ؟ . وفي صباح يوم الخميس 25 / يوليو وهو اليوم الذي صادف فيه عيد القديس يعقوب العزيز على الأسبان [1] ، تم تنفيذ عملية الإنزال تحت قصف مدافع الطرابلسيين التي كانت تقابلها وتواجهها نيران المراكب الغازية وذلك عند حوالي الساعة 9 صباحاً [2] وقد جرى تقسيم قوة الحملة إلى مجموعتين : الأولى مكونة من أربع فرق كبيرة تعداد كل فرقة منها 1000 جندي بقيادة " ديجو باشيكو Diego Pacheco ، وجوناس دي أريجا Joanes de Arriaga ، وجوان سالجادو Juan Salgado ، وأفيلا Avilla " ، كانت هذه الفرق مكلفة بمهاجمة المجاهدين المقيمين خارج المدينة والعمل على الحيلولة دون وصول النجدة من الريف . أما القسم الآخر المكون من بقية الجيش والمؤلف من أحد عشر ألف رجل كان مكلفاً بالهجوم وتسلق الأسوار. [3]

ويرجح الكاتب كوستانزيو برنيا أن يكون المكان الذي نزلت فيه الحملة شاطئ الحميدية وهو موقع ممتاز لوجود المياه ولارتفاعه الذي يسيطر على المدينة [4] . وإن كنا نشك في مدى دقة هذه الرواية ذلك أن الحميدية قرية ساحلية بتاجوراء تبعد عن طرابلس القلعة بمسافة لا تقل عن 20 كم وهي مسافة يصعب فيها الزحف والسيطرة وجر المدافع والسلاح والأثقال خاصة إذا ما علمنا أن المقاومة الشعبية جل تمركزها كان بتاجوراء ، ثم إن مدى مدفعية القلعة لا يصل إلى هذا الحد من المسافة ، وبالتالي فإننا نرجح ما ذهب إليه الباحث الليبي بازامة من أن عملية النزول قد تمت في منطقة الشعاب [5] وهي نقطة ساحلية مرتفعة قريبة جداً من مركز طرابلس القلعة ، ولإشرافها على المدينة ولتوفر المياه الصالحة للشرب فيها [6] "

وتتضارب الروايات بين الباحثين حول تصوير حدث الإنزال والهجوم على طرابلس يقول التقرير المنسوب لمجهول : " إن إنزال الجنود تم على الرغم من أن مدفعية أبراج المدينة الحامية تقوم بالتصويب " ، نجد أن الأب كوستاتريو برنيا لا يشير إلى هذه النقطة البتة بل ويذهب إلى القول بأن

---

[1] نفس المصدر والصفحة ، وانظر : أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 19 .

[2] شارل فيرو :الحوليات ، مصدر سابق ، ص73 .

[3] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 22 .

[4] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 26 .

[5] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 56 ، 57 .

[6] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص34 .

عشرة سفن حربية اقتربت حتى انتهت إلى قرب جدران الحصن " القصبة " وأسوارها المقابلة للبحر ، وأنها شرعت في دكها بمدفعيتها ، في نفس الوقت الذي كانت فيه مدافع الفرق البرية تقصف المنطقة وتمهد الطريق لتقدم جيوش الاحتلال في اتجاه الأسوار ، وتحاول دك أسوار المدينة من جهة الجنوب غير متعرضاً بذلك لأي رد فعل مدفعي الأمر الذي يجعل الباحث يتساءل : ألم تكن هناك مدافع منصوبة على أبراج القلعة ؟ لماذا لم يتم استخدامها ؟ هل هي غير صالحة للاستعمال أم أن بطاريات المدافع غير متوفرة ؟ ذلك أن النصوص لم تسعفنا بذلك ، فاضطررنا للبحث عن إجابات لهذه الأسئلة في الغنائم التي غنمها الأسبان وحينما تم رصدها وحصرها لم تكن من بينها مدفعية ولا بطاريات مدافع ، مما جعلنا نميل إلى الأخذ برأي الأب كوستانزيو برنيا ، فمدفعية الأبراج حتى ولو أنها موجودة غير أنه لم يكن لها شأن يذكر فلم تقاوم بالشكل المطلوب ولم تحم الأسوار ولم تقم بمسألة الرد ، ولم تغرق سفينة أو تصب هدفاً . غير أن هناك إشارة عند شارل فيرو صاحب الحوليات يقول في معرض حديثه عن الإنزال والهجوم والقصف : " إن المدافع من جهة الساحل أخذت في إطلاق عياراتها ، إلا أن الذي يبدو أن مداها ضعيف فلم تصب العدو في شيء وإلى أن اقتربت منهم القوادس الشراعية وأخذت تقصفهم بكل وحشية إلى درجة أن الطرابلسيين هجروا مدافعهم ودفاعاتهم [1] "

لقد تم الإنزال إلى البر بواسطة بعض القوارب والمراكب الصغيرة التي جرى إعدادها أثناء الليل بمنتهى السرعة . وقبل منتصف النهار كان ستة آلاف رجل يتجمعون عند الشاطئ جنوب شرقي المدينة ، وقد جهزوا بالمدفعية وتحت قيادة ثمانية ضباط برتب عالية [2] . وتم توزيعهم بنجاح إلى حد - رغم هجمات فرسان البلاد ومشاتها – منع اقتراب العدو بما كان يصلاه من قذافات نارية وسهام وطلقات بنادق الفتيلة [3] .وسرعان ما استولى المهاجمون على قسم من السور وبرجين ، ثم استولوا على البرج القائم عند باب العرب " باب المنشية " وفتحوا الباب الذي دخل منه الأسبان إلى المدينة وظلوا يحاربون ثلاثة ساعات داخل شوارع المدينة إذ كان الطرابلسيون يقاومون بعنف [4] .

ومن خلال مقارنتنا للروايات التاريخية التي تناولت هذا الحدث نجد أن القائد بدرونافارو يقول في رسالته التي بعثها إلى حكومته في أسبانيا : " إن القواد تمكنوا في بضع ساعات من إنزال ستة آلاف مقاتل قسموا إلى قوتين هاجمت إحداهما أسوار المدينة ، وانصرفت الأخرى إلى صد محاولات عرب الدواخل عن نجدتها . أما الأب برنيا فيضيف إلى ما تقدم قوة أخرى ثالثة تحت قيادة ثلاثة ضباط نزلت في موضع لم يحدده كانت مهمتها حراسة القوتين من أي كمين قد يفاجئهم

[1] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص73 .
[2] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 26 .
[3] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص73 .
[4] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 19 .

العدو به [1] أما الراوي المجهول فقد ذكر أن قوة الاحتلال قد جزئت إلى فرقتين : الأول من أربعة فيالق كل منها مكون من ألف رجل ، وقد كلفت بمهاجمة العرب الذين في خارج المدينة . أما الثاني فيكون الباقي وهم أحد عشر ألف قد هاجموا المدينة محاولين تسلق الأسوار . وهكذا نجد الروايات الثلاث وإن اختلفت في بعض التفاصيل إلا أنها قد أجمعت على أن المدينة قد هوجمت من البر ومن البحر بقوة لا قبل لأهل المدينة لها إلا بالتحصن وراء الأسوار [2] ، وأن القوات الغازية قد احتاطت لنفسها بمنع أي إمدادات من المدينة أو نجدة من السكان.

وبهذا الطرح نكون قد تعرفنا على استعدادات الفريق الغازي وإمكانياته . وهنا السؤال ما هي ظروف البلد المحتل وما هي استعداده لصد مثل هذه الحملات. وهل له بها علم وتجهيز؟

من خلال استقرائنا للروايات التاريخية تبين أن حكومة طرابلس وسكانها لهم علم مسبق بما يكيده ويدبره الأسبان لهم وذلك قبل الحملة بخمس وثلاثين يوماً من قبل أحد تجار " جنوا " الذي أبلغ عن طريق أصدقائه من التجار الجنويين في صقلية فأخبر بدوره أصدقائه من التجار العرب الطرابلسيين فنقلوا ثرواتهم فوق الإبل التي قدر عددها بـ5 آلاف بعير مجهزة بالبضائع والتموين والأموال إلى المناطق والقرى المجاورة كتاجوراء وجنزور وغيرها [3] . كما أن سكانها من المدنيين قد هجروها فلم يبق فيها على حد رواية الباروني إلا الجنود ، وبعض المدنيين ، وشيخ المدينة وحاكمها عبد الله بن شرف ، وأزواجه ، وأبنائه ، وأصهاره ، وبعض العائلات اليهودية التي كانت تقطن في حارة " جوديخا اليهودية " [4] ، ولعل الدافع من وراء هروب السكان العزل المدنيين يعود إلى ما كانوا قد سمعوه عن الأسبان ، وعن قوتهم وأساليبهم الوحشية التي استعملوها في الحرب في الأندلس وغيرها ، فأثر عكسياً على سكان المدينة فهربوا بالنساء إلى داخل القطر إلى جبال غريان ، ومسلاتة ، وتاجوراء ، وغيرها [5] .

أما من حيث التجهيزات فلم يكن لدى المقاتلين الطرابلسيين إلا البنادق وجنود الحامية القليلة التي كانت فوق الأسوار والقلاع والتي عملت كل ما في وسعها لتأخير عملية الإنزال والدخول [6].

---

[1] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 26

[2] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 58 ، 59 .

[3] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 19 .

[4] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 35 .

[5] المرجع نفسه ، ص 24 ، 35 .

[6] أحمد النائب:المنهل العذب، مصدر سابق،ص 35 ،وانظر الباروني:الأسبان،مرجع سابق، ص 35 .

مرحلة الاشتباك المسلح

لم تتمكن القوات البحرية في البداية من اقتحام باب البحر والاستيلاء على السور من الجانب الغربي للقلعة ، ذلك السور الذي يمتد على طول الميناء حتى حصن القديس بطرس ، وعلى صوت النفير ودقات الطبول ، ألقى الأسبان بأنفسهم في محاولة لتسلق أسوار القلعة ، وقد تسلحوا لذلك بحرابهم واستعمال السلالم ، وكان هدفهم الأول الباب المزدوج المجاور لباب الحرية . وقد دام الهجوم الرامي إلى تسلق القلعة أربع ساعات أمكنهم بعد ذلك أن يبلغوا أعالي السور [1] . وكان المحاصرون الطرابلسيون في هذه الأثناء يرمون على العدو بقذائفهم النارية وبإلقاء الصخور والسهام [2] . وفي المقابل كان القائد الأسباني " بدرو دي نافارا " يقود المعركة وينتقل من مكان لآخر لإصدار التعليمات والأوامر وتشجيع المقاتلين [3] ، لأنه يقاتل وفق روح صليبية حاقدة همها القضاء على شأفة المجاهدين وعلى الدين الإسلامي . وقد استطاع عدد من الجنود وعند الساعة الحادية عشرصباحا أن يتسلقوا الأسوار ، فأخذ الطرابلسيون يدافعون بقوة ويلقون بالمتسلقين إلى أسفل الأسوار . وفي هذه الأثناء كانت بوابات المدينة ما تزال مغلقة بحيث أن أولئك الذين قفزوا داخلها من النصارى عذبوا أشد العذاب من قبل الأهالي دون أن يتمكن أحد من نجدتهم [4] .

ما إن سيطر الأسبان على جانب من السور وعلى البرجين ، والبرج الذي يعلو " باب العرب " – باب الحرية - أو باب المنشية ، حتى فتحوا الأبواب أمام قوات الاحتلال الأسباني فتدفقت القوات إلى داخل المدينة وشوارعها فواجههم الطرابلسيون بالدفاع المستميت [5] وتوضح لنا رواية باتستينو دي تونسس Batistino De Tonisis وهو شخص شارك في الحملة فيقول : " إن الذي اقتحم باب العرب كانت القوات التي هاجمت المدينة من البر ، وإن قمة الهجوم على المدينة حصلت عندما تمكن حامل العلم جيم دياز Jaime Diez من رفع العلم الأول فوق السور داخل القلعة ، فدخلت القوات البرية المسيحية في المدينة كالطيور لا يكاد يصدق الإنسان أنها دخلت من الأبواب تقتل وتطارد الأعداء الذين تحصنوا في القلعة والمسجد الكبير وبعض الأبراج والحصون ، ولم تتوقف الجيوش البرية عن المقاومة من جهة البحر ، مما دفع قواد الجيوش البحرية من تأنيب جنودهم على تقاعسهم في التمكن من الأسوار ومن اقتحام المدينة مثل إخوانهم في الجيوش البرية ، فاندفعوا غاضبين لأنفسهم وكرامتهم المجروحة في قوة يدفعهم الخوف والحياء وتمكنوا من تسلق الأسوار

---

[1] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 26 .

[2] نفس المصدر والصفحة .

[3] نفس المصدر والصفحة .

[4] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 74 .

[5] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 59 .

وتدفقوا إلى المدينة من كل جانب ، وحمي وطيس القتال في كل شارع من المدينة وحين تم لقاؤهم مع بقية القوات الغازية تجمعوا وتعاونوا على محاصرة النقاط الرئيسة من المسجد والقلعة والمسجد الكبير [1] ،وكثر القتل في المقاومين الوطنيين بكل قسوة ووحشية [2] .

وكان القتال يدور عنيفاً من البر والبحر [3] ودامت المعارك وتواصلت في المدينة وقتاً طويلاً ، وأصبح الفريقين في حالة من التعب والإجهاد إلى حد أنهما كانا يخلدان للراحة من وقت لآخر [4] ، وبعد ثلاث ساعات من المعارك العنيفة تمكن الأسبان من الاستيلاء على القلعة والمسجد الكبير [5] ، وانسحب الشيخ عبد الله حاكم المدينة مع بعض المقاتلين إلى داخل السراي [6] وأغلق بقية المجاهدين على أنفسهم الأبراج وقاوموا مقاومة باسلة [7] ، وكان عددهم يربوا على 3 آلاف مقاتل [8] " ، وبعد استيلاء الكونت دي نافارا على المقاطع المهمة في المدينة توجه على الفور إلى السراي خشية أن يتسرب المعتصمون بها من إحدى منافذها ويهاجموا جنوده بغتة [9] .

إن هذا العرض التاريخي يضعف بعض الروايات العربية وغيرها التي تقول أن طرابلس لم تقاوم وأن أهلها هربوا في جنح الظلام وتركوا مدينتهم دون مقاومة ، وأن الأسطول قدم دون أن يفطن به أحد من سكان المدينة ، وأنه استولى عليها في الحال بدون قتال [10] . إن ما تقوله هذه الروايات من قلة الدفاع عن المدينة ، تدلل على أن جربة وهي المحطة التالية للكونت نافارا ليست في تحصيناتها بأفضل من طرابلس ذات السورين والخندق والتي تحميها الأبراج العالية المشرفة على المدخل فقد انتصر أهلها عليه وانكسر جيشه، فمن الطبيعي أن لا يشعر أهالي طرابلس ـ مقارنة بهذا الموقف ـ بأنهم صدقوا في الدفاع عن مدينتهم المحصنة بعد أن تبين لهم ضعف عدوهم وانهزامه في معركة تالية على شكل مزري ، ولا غرابة حينئذ أن ينسبوا عجزهم عن صد العدو إلى عدم

---

[1] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ص 27 . وانظر : شارل فيرو: الحوليات ،مصدر سابق ، ص74

[2] M.Lenghena : Linpresa Di Tripoli Nel 1510 R.d ' Afriqa 1912 p.7 .

وانظر: أيتوري روسي: طرابلس ، مرجع سابق ، ص 21 ، انظر : وبازامة : ليبيا ، مرجع سابق ص60 . وانظر : الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص38 .

[3] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 26 .

[4] شارل فيرو : الحوليات ،مصدر سابق ، ص 74 .

[5] كوستانزيوبرنيا : مصدرسابق ، ص 27 .

[6] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 74 .

[7] نفس المصدر والصفحة .

[8] نفس المصدر والصفحة .

[9] نفس المصدر والصفحة .

[10] ابن غلبون : التذكار، مصدر سابق ، ص95 ، وانظر مابل لومس تود : أسرار طرابلس ، مرجع سابق ، ص53 .

اهتمامهم بتحصين مدينتهم [1] ، وأن احتمال الخيانة في الدفاع كانت عاملاً آخر قد ساعد في عملية السقوط [2] ، غير أن هذا الحديث أمر تنفيه المصادر غير العربية بما ترويه عن تفصيلات المعركة والمقاومة الشديدة التي أبداها أهل طرابلس . وكفى بهم دفعاً لتهمة الخيانة والتفريط أن يستشهد نصف عددهم ويؤسر النصف الآخر في سبيل الذود والدفاع عنها خلال معركة واحدة دامت سبع ساعات " أربع ساعات عند الأسوار ، وثلاث ساعات عند القصبة والمسجد الأعظم " [3] . وأن سكانها الناجين من القتل أو الأسر قد تسوروا السور عند حارة اليهود الواقعة في شمال المدينة ليلتحقوا بإخوانهم المجاهـــدين الذين سيشكلون معسكرات إعداد بغية مهاجمة الأسبان في طرابلس من جديد [4] .

وهكذا انتهت المعركة بسقوط مدينة طرابلس مساء يوم الخميس 25 يوليو 1510م وهو يوم عيد القديس يعقوب ودخلت المدينة ضمن الاحتلال الأسباني الذي استمر عشرين عاماً [5] .

لقد أسفرت هذه المعركة عن عدد من القتلى ، والأسرى ، والحصول على غنائم متنوعة **فأعداد القتلى** كما ترويها المصادر كانت كثيرة ، حيث في ساعة واحدة في المسجد الكبير الذي اقتحمه الأسبان كان القتلى من الطرابلسيين أكثر من ألفي شهيد [6] ، وإجمالي أعداد قتلى المدافعين من الطرابلسيين في عدد سبع ساعات قتالية تفوق المتوقع، يقول أتوري روسي : "هم من الكثرة بحيث لن تجد موطئاً لقدمك إلا فوق الجثث " [7] ، ويقدر عدد القتلى بحوالي الستة آلاف مقاتل ألقيت جثثهم في مواجل الجامع أو في البحر بينما أحرق بعضها [8] ، وإذا كانت عادة الرواة في التاريخ أن يقللوا من موتى الفريق الذي ينتمون إليه في الوقت الذي يغالون في الإكثار من قتلى الجانب المقابل ، غير أن كثرة الأرقام تدل على فظاعة الحدث وهوله .

ويعزى كثرة القتلى في صفوف المدافعين لأسباب منها :

1. التفاوت في مـــــدى خبرة كل منهما بأساليب القتال ، فأهل طرابلس مدنيون مسالمون بطبعهم ، والأسبان همجيون متعطشون للدماء .
2. حامية طرابلس مهمتها حفظ الأمن وحراسة الممتلكات ، لا مباغتة العدو والهجوم عليه

---

[1] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 43 .

[2] النائب الأنصاري : المنهل العذب ، مصدر سابق ، ص 185 .

[3] بازامة : المرجع السابق ، ص 64 . الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 37 .

[4] المرجع نفسه ، ص 61 .

[5] التليسي : حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص 61 .

[6] شارل فيرو :الحوليات ، مصدر سابق ، ص 74 .

[7] طرابلس ، مرجع سابق ، ص20.

[8] شارل فيرو : مصدرسابق ، ص 74 .

3. لدى الأسبان جند مدرب بخبرته كانوا قد خاضوا معارك حربية عديدة في أوروبا والشمال الأفريقي ، واستولوا على أكثر من مدينة وموقع ساحلي .
4. انعدام القيادة لدى المدافعين ، فالدفاع كان حماسياً عشوائياً دون تخطيط مرتب من لدن قائد محنك عالي الهمة مشهور الصيت .
5. توفر القيادة المحنكة والمدربة لدى جيش الاحتلال ، وتوفر العدد والعتاد .

وهي فروق قللت ولاشك من أعداد القتلى بين الأسبان ، " وزادت من عدد الضحايا بين المواطنين ولكن بنسبة لا يمكن أن تصل إلى هذا التفاوت الكبير في العدد لما نعلمه من تعرض الغزاة في محاولات تسلق الأسوار للقتل أكثر من تعرض المدافعين عن هذه الأسوار والحصون " [1] .

أما عدد القتلى من الأسبان كانت كما يقول روسي قليلة [2] ويحصرها فيرو في حدود مائة وخمسون قتيلا بينهم عدد من الشخصيات البارزة [3] منهم : رويزي دياس دي بورتاس أميرال الحملة Roysi dias de portas ، وكريستوفرو لوبيز دي ريارم Cristofaro Lopez De Riaram وجيوفاني ألفريس دي هوريا Giovanni Alferes de Horia [4] ، ومع القتلى كان هناك الكثير من الجرحى في الجانبين. [5]

أما عن الأسرى ، فقد تضاربت حولهم الروايات ، فالنص المعتمد لدى إيتوري روسي بأنهم أكثر من ستة آلاف أسير طرابلسي [6] ، ويحصرهم شارل فيرو في حولياته إلى أكثر من خمس عشرة ألف أسير [7] ، وكان على رأس الأسرى حاكم المدينة الشيخ عبد الله بن شرف وأولاده وزوجته وأسرته المالكة [8] ، وبعض من علية القوم كانوا قد اشترطوا تسليم أنفسهم بعد المقاومة بشرط التحرير. [9] ولعل اللافت للنظر في مسألة الأسرى لدى المصادر التاريخية هو سكوت الأب برنيا في كتابه عن أمر سبي الأسبان للمدنيين من سكان طرابلس حين احتلالهم لها ، وبيعهم لهم رقيقاً في أسواق صقلية ، لما في هذه الواقعة التاريخية من مظهر غير حضاري وغير إنساني يزري بالمسيحية الأسبانية وبحروبها

[1] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 64 ، 65 .
[2] طرابلس ، مرجع سابق ، ص 19 .
[3] الحوليات ، مصدر سابق ، ص 74 .أتيوري روسي ، المرجع نفسه ، ص 21 .
[4] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 27 .
[5] شارل فيرو ، مصدر سابق ، ص 75 .
[6] طرابلس : مرجع سابق ، ص 19 .
[7] شارل فيرو : مصدر سابق ، ص 75 .
[8] أتيوري روسي :مرجع سابق ، ص 21 .
[9] المرجع نفسه ، ص23.

اللادينية باسم الدين. [1] لقد صور لنا روسي وضع الأسرى وكيفية معاملتهم حيث يقول نقلاً عن قنصل دولة البندقية Venezia في باليرمو Palermo في رسالة له بتاريخ 13 / سبتمبر إلى حكومته يعلمها أنه وصل إلى باليرمو من طرابلس عدد ألف وأربعمائة أسير طرابلسي، وأنه ينتظر أن يرسل عدد آخر كبير ، وأنهم بيعوا بالمزاد العلني كرقيق بأثمان تتراوح من ثلاث إلى خمس دوكات بسكة العصر " Ducats " للأسير الواحد [2] ، أما الأسرى اليهود فينفرد الأب برنيا بالإشارة إلي بيعهم في إيطاليا ، وأن إخوانهم يهود إيطاليا افتدوهم بالمال وحرروهم [3]، أما الذين نجوا من القتل وفروا من الأسر فتقدر أعدادهم بألف وخمسمائة يهودي ، ذهبوا إلى الجيوب الخلفية من طرابلس كمناطق غريان ونالوت ويفرن وغيرها [4]

ولو جاز للباحث أن يعمل مقارنة بسيطة بين ما قام به الفاتحون المسلمون وما نصت عليه الشريعة والقوانين الإسلامية تجاه الأسير ، وما عمله الأسبان المدفوعون بنزعة دينية صليبية حول أسرى طرابلس لوجد البون شاسعاً ، ولا وجه للمقارنة البتة ، فأين هم من احترام المسلمين لكنائسهم ، وعقائدهم وأديرتهم ، ونسائهم ، وأطفالهم ، وأسرهم ؟ أين هم من آداب القتال الذي أوصى بها رسول الله ﷺ إلى قائده أسامة بن زيد ، والتي أكدها الخليفة أبا بكر من بعده [5] ، ثم أين هم مما عمله القائد المسلم العثماني السلطان سليمان القانوني حينما فتح رودس سنة 1523م وأخرج منها فرسان القديس يوحنا آمنين على أنفسهم وأسلحتهم وأموالهم دون أن يمسهم أذى في الوقت الذي كان له الحق في أسرهم أو قتلهم لأنهم أهل حرب [6] .

إن هذه الأرقام التي تم حصرها للقتلى والأسرى المحليين من قبل الرواة والمؤرخين تعطينا صورة ولو تقريبية عن عدد سكان المدينة في تلك الفترة [7] ذلك أن الروايات قد تضاربت حول خلوها من السكان من عدمه .

---

[1] نقلاً عن بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 21 .

[2] أيتوري روسي : المرجع السابق ، ص 23 ، وانظر الباروني : الأسبان ، ص 41 .

[3] الباروني : نفس المرجع والصفحة ، بازامة : المرجع السابق ، ص 62 .

[4] انظر د. خليفة الأحول : يهود مدينة طرابلس ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس ، ليبيا ، 2006م ، ص514.

[5] الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1985م ، جـ4 ، ص71.

[6] سامح عزيز : الأتراك والعثمانيون ، دار عمار ، الأردن ، ص153.

[7] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 27 .

أما ما غنمه الأسبان في الحملة حسب ما ذكر المؤرخون تتمثل في الآتي :-

1. حصولهم على جزء من ثروات المدينة الطائلة بالرغم من أن الطرابلسين كانوا قد تمكنوا من نقل حمولة أكثر من خمسة آلاف جمل بعدما ما أشعروا باقتراب أسطول الأسبان من شاطئهم [1] ، وتتمثل هذه الثروات في الأسلاب الثمينة من الذهب والفضة ، وأحجار كريمة ، وأثاث ، ورقيق وغيرها . [2]
2. كما غنم الأسبان عند استيلائهم على الميناء مركب من نوع Caravella محملاً بمائة برميل ، ومركب آخر غليوني من نوع Galeva صغير ذي 22 مقعداً كان ما يزال منصوباً فوق رمال الشاطئ حيث كان العمال يطلون ألواحه بالزفت ، ومركبين آخرين يحتوي كل منهما على 18 مقعداً ، هذا إلى جانب عدة قوارب أخرى [3]
3. غنم الأسبان بعد مضي يومين من الاحتلال سفينة تركية كانت قادمة من المشرق محملة بالبهارات ، كما احتجزوا سفناً قادمة من اليونان ، ومن الإسكندرية وغيرها ، كانت محملة بالبضائع ، وعلى غير معرفة منها بوقوع المدينة تحت السيطرة الأسبانية [4] .

هذا الاستيلاء على هذه المراكب التجارية ، يعطينا دلالة تاريخية على أهمية طرابلس التجارية ودورها في حركة الملاحة العالمية ، فقد كانت لها صلة ممتازة بالعالم الخارجي ، ولها تبادل تجاري واسع مع العديد من الدول ، وأنها كانت تتمتع بثروة هائلة . [5]

4. كما غنم الأسبان عدد مائة وخمسون عبدا رقيقا كانوا يخدمون بيوتات أهل طرابلس قبل الاحتلال ، وهكذا نرى أن الغنائم قد تعددت أنواعها وقيمتها [6] .

وبعد أن انتهت المعارك وتأكد الدخول الفعلي للأسبان والسيطرة التامة على القلعة والمدينة أضحى القائد الكونت بدرو دي نافارا حاكماً فعلياً لطرابلس لمدة خمسة أيام فقط ، حيث قام برفع راية الملك الكاثوليكي على طرابلس ، وتقبل يمين الولاء عن الملك فرديناند [7] ، وقد أبلغ بدوره ملك صقلية بما حصل في طرابلس في خطاب أرسله له بتاريخ 29 يوليو سنة 1510م حيث أعلمه أن

---

[1] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 75 .

[2] المصدر نفسه ، ص 74 .

[3] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 23 . شارل فيرو : نفس المصدر والصفحة. وانظر الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 40 .

[4] أتيوري روسي :نفس المرجع والصفحة ، فيرو : نفس المصدر والصفحة .

[5] د. محمد أبو عجيلة : النشاط الليبي في البحر المتوسط ، مرجع سابق ، ص 46 .

[6] أتيوري روسي : المرجع السابق ، ص 21 .

[7] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 77 .

العمليات الحربية كانت عنيفة إلا أنه هنأه بالفتح الذي تم على يديه [1] .وبعد استقراره بخمسة أيام ترك الكونت بدرو حكم المدينة لأحد رجاله المسمى دون خايمي بيدروريكيزنس Don Jayme Pedro Requesens إلى جانب قيادة الحامية التي بقيت بالمدينة ، وترك له قوات ومدفعية كافية للاحتفاظ بسيطرته عليها ، وأبحر مع بقية جيشه لتفتيش السواحل واستطلاع جربة [2] ، لأنه كان يدرك أن احتلاله طرابلس لا يجعله بعيداً عن خطر الغزو والهجوم عليه ، كما أن خطوط مواصلاته بين طرابلس وأسبانيا ، وطرابلس وصقلية مهددة في كل ساعة بخطر هجوم مقاتلي جربة الذين كانوا لا يفترون على شن الغارة على السفن المسيحية [3] انتقاماً لإخوانهم الطرابلسيين .

نتائج الحملة :-

أولاً : <u>على الصعيد الإستراتيجي :</u>

أ . قد شجع النجاح في احتلال طرابلس ملوك أسبانيا على أن يدفعوا بحملاتهم ضد أفريقيا دفعة قوية ، ويبدو أن الملك الكاثوليكي قد سرى إليه الحماس فأحب أن ينهض بنفسه إلى قيادة حملة تهدف إلى توسيع رقعة انتصاراته ، وقد جرت استعدادات جادة لهذه الغاية في الأندلس خلال الشتاء وربيع سنة 1510م وكان من المقرر أن تسافر الحملة من ميناء مالطة ، ولكن الأحداث التي وقعت في إيطاليا قد صرفت اهتمام الملك فرديناند عن الشؤون الأفريقية بالمرة [4]

ب- إن احتلال طرابلس كان عاملاً مشجعاً للكونت بدرونافارا على التفكير الجدي في العمل على احتلال جزيرتي جربة و قرقنة والاستيلاء عليهما ، غير أن الهزيمة التي لحقت بجيشه في جربة وضعت خبرته كقائد حربي في البر والبحر على المحك ، فقد أظهر أنه لم يكن بالمستوى المطلوب من حيث التخطيط العسكري للزحف براً في ظروف غير ملائمة له ، فأدى إنزال قواته في منطقة تبعد عن المركز السكني للجزيرة بضع كيلومترات ، وإهماله التفكير في مشكلة مياه الشرب إلى خطأ فادح وهزيمة جنده وعودته إلى طرابلس بعد عناء طويل مع السفر يجر أذيال الهزيمة النكراء [5] ، وما إن وصل حتى افترق عنه جنده وسلك كل منهم الطريق الذي يلائمه [6] ، وبهذا

---

[1] المصدر نفسه ، ص 75 .

[2] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 84 . كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ،ص 49 شارل فيرو ، المصدر نفسه ، ص 77

[3] كوستانزيوبرنيا : المصدر نفسه ، ص 48 .

[4] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 27 .

[5] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 81 .

[6] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 28 ، 29 .

فقد انتقم سكان جزيرتي جربة وقرقنة لإخوانهم سكان مدينة طرابلس وأخذوا بثأر إخوتهم الذين قتلهم الأسبان [1] .

ج . إن الاحتلال الأسباني لطرابلس قد أظهر ما تتمتع به طرابلس من أهمية في سلسلة المدن الإسلامية بالشمال الأفريقي ، وما كان لها من مركز في نشاط البحرية الإسلامية في تلك المنطقة ، الأمر الذي جعل الأسبان يضعونها ضمن أهدافهم الرئيسة في خطتهم الرامية لإقامة ما يعرف حينذاك بنظام الحاميات " برسيديوس " Presidios والتي كان من أهم وظائفها القيام بتعطيل نشاط الحملات البحرية المضادة للأسبان وللقوى المسيحية بصفة عامة [2] .

د . إن الاحتلال الأسباني لطرابلس لم يتجاوز عملياً القلعة ، فدواخل طرابلس الغرب لم تطأها أقدامهم أبداً إلا في حملات قصيرة ضد القرى الساحلية القريبة من وسط طرابلس [3] .

هـ . إن أسبانيا كانت مدفوعة في احتلالها لطرابلس بطموحها إلى التفوق على كافة الدول في السيادة على البحر المتوسط ، كما كانت مدفوعة بالحركات الدينية في توسعها واحتلالها للمراكز الرئيسة في سواحل الشمال الأفريقي [4] .

<u>ثانياً : على الصعيد المحلي " الداخلي "</u>

<u>معمارياً :</u>

أ . تعرضت طرابلس إلى متاعب كثيرة جداً جراء الهجوم الأسباني عليها وخاصة من الناحية المعمارية ، ذلك إن جزءاً من السور قد هدم لغرض استخدامه في تدعيم القلعة التي كانت في حالة لا تصمد معها ضد أي هجوم قوي [5] .

ب . كما أن المنازل والمنشآت في طرابلس من المؤكد أنها قد أصابها التذمر نتيجة الهجوم عليها [6] .

<u>انتروبولوجياً :" سكانيا "</u>

ج . إن سكان طرابلس قد نزحوا عن المدينة إبان الاحتلال الأسباني فانخفض عددهم فيها إلى ستين عائلة عربية فقط [7] مما أثر سلباً على الحياة المعاشة داخلها ، في الوقت الذي كان عدد سكانها أكثر من عشرة آلاف نسمة من العرب ناهيك عن آلاف من اليهود [8] .

---

[1] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 58 .

[2] التليسي : حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص 61 .

[3] أيتوري روسي: طرابلس ، ص 54 ، التليسي : المرجع نفسه ، ص 63 ، 64

[4] أتيوري روسي : المرجع نفسه ، ص 53 ، 54 .

[5] المرجع نفسه ص 60 .

[6] المرجع نفسه ، ص 51 .

[7] نفس المرجع والصفحة .

[8] المرجع نفسه ، ص 20 ، 21 .

ثالثاً : على الصعيد الدفاعي

أ. انتهز عرب طرابلس غياب الأسطول الأسباني بتوجهه إلى جربه ، فهجموا على المدينة وتسلقوا الأسوار إلا أنهم لم يظفروا منها بطائل فاضطروا إلى الرجوع إلى معسكراتهم [1]

ب- ظهور بؤر المقاومة الوطنية وانتشار رقعتها وقيامها بمجموعة من التحالفات ضد الأسبان ، فقد لجأ الطرابلسيون إلى العرب المقيمين في الضواحي الذين عملوا على مساعدتهم في استعادة المدينة ، وقد تألفت مراكز تنظيمية في الجبل الغربي ، وغريان ، وتاجوراء ، ومسلاته ، وجنزور [2] ، وغيرها ، الأمر الذي سيقودنا الحديث عنه في الفقرة القادمة.

المقاومة الوطنية للاحتلال

أ – طرابلس في ظل الاحتلال الأسباني

قبيل مغادرة القائد العام للقوات الأسبانية المسلحة الكونت بدرونافاروا طرابلس عين بدلاً عنه القائد ديغوا دي فارا Diego de vara حاكماً عاماً عليها وقائداً لحاميتها العسكرية فأضحى هذا القائد أمام مسئوليات صعبة ومهام جسيمة ، فالعدو الطرابلسي متربص به من كل جانب ، والإمكانات محدودة وفي طريقها إلى الانتهاء ، لذلك اكتفى هذا القائد بالانتصار السابق الذي تم تحقيقه وهو السيطرة على القلعة – السراي – فاعتمد الرؤية الدفاعية لأجل البقاء والسيطرة عوضاً عن الهجوم ، " لذا كان ليس له من هم إلا الاحتماء هو وجنوده بأسوار القلعة ، وصرف جميع جهوده قي تقويتها وزيادة تحصينها " [3] . وقام من أجل ذلك بخطوات إجرائية تضمن له الصمود وإبعاد خطر العدو عليه ***منها :***

1- طرد جميع الطرابلسيين – الذين نجو من القتل والأسر – من مدينتهم وأخرجهم إلى القرى والمناطق الجبلية ، وقام بتهديم المنازل والمباني العامة وهي إشارة إلى هوان المدينة لديه [4] .

2- استغل المواد المأخوذة من تلك الخرائب لبناء أسوار جديدة على نمط التحصينات الأوروبية التي كانت معروفة في ذلك الوقت .

3- عمل القائد ديجو على ترميم القلعة والسراي ، وإضافة أجنحة أخرى إليها [5] ، فمثلاً نجد أن مساحتها التي كانت في الأصل مربعة الشكل قد دعمت بأربعة حصون لها حافات ناتئة أطلقت عليها أسماء غريبة على البيئة العربية الإسلامية منها :" القديس بارب ، والقديس

---

[1] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 57 .

[2] أتيوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 31 .

[3] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 86 .

[4] التليسي : حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص 67 .

[5] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 76 .

انطـوان ، والقـديس يعقـوب ، والقـديس يوحنـا " [1] ، وفي هـذا تخريـب مقصـود لتشـويه معـالم المدينة العربية الإسلامية وطمس هويتها ورموزها وطرازها ومعمارها وفنها الإسلامي .

4- حول القائد ديجو أجمل قاعات السراي إلى كنيسة سميت بكنيسة القديس ليوناردو .st L'eonard* [2] ويكتسي هذا العمل الموجه أهمية بالغة الدلالة ، وهي أن الحرب التي خاضتها أسبانيا هي حرب دينية صليبية حاقدة هدفها القضاء على شأفة الإسلام ومعالمه ، والدليل على ذلك ما رافق الحملة من تحريض على الارهاب العقدي والديني ومن قتل للعلماء ، وإحراق للكتب والخزائن ، وتدمير للجماعة الاسلامية بالنفي والتعذيب [3] .

5- كما عمل هذا القائد على إحاطة الأسوار بخندق عريض حفره في الجزء الذي لم يكن البحر يمس فيه قاعدة السراي ، فلم يكن أحد يستطيع أن يلج إلى القلعة إلا بواسطة جسر متحرك . ومن أعلى باب المدخل الذي يفتح على الجهة الغربية تجاه المدينة ثبت لوحة من المرمر نقش عليها شعار أسلحة أسبانيا [4] . وهكذا أحدث هذا القائد التغير والتشويه في بنية المدينة وطرازها المعماري وكان يرمي من وراء كل ذلك طمس معالمها وإضفاء مسحة صليبية عليها ومبالغة في الدفاع عن أنفسهم ، وتأميناً للقلعة من أي خطر مرتقب ؛ وبجانب كل ما عملوه من ترميمات ولوازم دفاعية وتحصينية شيد الأسبان برجين مربعين يبعدان عن المدينة مقدار مرمى طلقة مدفع ، حيث عسكر فيها جنود حامية ، مهمتهم التبليغ عن خروج الفرسان الطرابلسيين الذين ما انفكوا يغيرون على المدينة ليل نهار [5] ، الأمر الذي يدل على أن هناك مقاومة عربية مستعرة .

وبالرغم من هذه التحصينات فإن الحامية الأسبانية في طرابلس عاشت طوال هذه المدة في وضع حربي قلق ، ولم يذكر أنهم قد استولوا على مراكز أخرى خارج سور القلعة [6] مما يوحي بأن الاحتلال لم توسع دائرته خارج أسوار المدينة .

---

[1] نفس المصدر والصفحة.

* ظلت هذه الكنيسة تؤدي دورها حتى دخول الأتراك العثمانيين طرابلس ، سنة 1551م ، فحولت إلى قاعة لحكم الأسرة القره مانلية في فترة لاحقة . انظر : د. صالح السباني : ليبيا أثناء العهد الموحدي والدولة الحفصية ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، ليبيا ، ط1 ، 2006م . ص471.

[2] نفس المرجع والصفحة .

[3] انظر : محمد المتوني ، ملامح من تطور المغرب العربي في بدايات العصور الحديثة ، الرباط ، المغرب ، د.ت ، ص798.

[4] محمد المتوني : ملامح من تطور المغرب ، مرجع سابق ، ص 798 .

[5] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 76 ، 77 .

[6] المصدر نفسه ، ص 87 .

إن ما قام به الاحتلال الأسباني من دفاعات وتحصينات قد نجحت في تمديد عمر الاحتلال سنوات عدة ، وبالرغم من المجهود الدعائي الذي قام به قنصل البندقية في باليرمو ، والرسائل التي بعثها إلى حكومته بأن الأوضاع في طرابلس أواخر سنة 1511م قد تحسنت ، وأن هناك هدوءاً نسبياً يسود المدينة [1] . غير أن هذا الكلام ليس بمبعث ارتياح لدى الحكومة الأسبانية الذين يدركون أن الهجمات الخاطفة والغارات المستمرة ما كانت لتهدأ من قبل الطرابلسيين ، بدليل أن الحامية في طرابلس لازالت تعتمد كلياً في اقتصادها ومعاشها على ما تحمله السفن الواردة من صقلية ومن أسبانيا وغيرها [2] .

إن سلطة الاحتلال لم تكن مهتمة بتنمية طرابلس ولا رعاية اقتصادها أو الاهتمام بأهلها ، مما نتج عنه التناقص المستمر في عدد السكان فأضحوا مهاجرين نازحين إلى المناطق الداخلية المجاورة ، وقد ذكرت المصادر أن عدد سكان طرابلس في هذه الفترة لم يكن يزيد على ستين أو ثمانين عائلة فقط [3] الأمر الذي جعل الوضع التجاري ينهار بسرعة ، فقل عدد السفن الواردة على الميناء ، وتحول القسم الأكبر من النشاط الملاحي إلى الموانئ الفرعية الأخرى [4] ، ومما زاد من هذه الأزمة تعقيداً عزلة المدينة عن المحيط والعالم الخارجي [5] .

ورغم المحاولات الجادة للحكومة الأسبانية لإنعاش الوضع الاقتصادي في طرابلس وذلك بتشجيع الهجرة إليها والاستيطان فيها ، وفتح آفاق في التجارة أمام شعوب ودول أفريقية جديدة ، ومحاولتهم فتح سبل تعاون مع السلطات المجاورة كما حدث في سنة 1512م عندما وصل وفد من بورنو الأفريقية قد أرسله " ماحي موسى " سلطان هذه الدولة للحكومة الأسبانية في طرابلس يسألهم فيها إذا كانوا على استعداد للتعاون في المجال التجاري وإمداده بالبضائع الأوروبية في مقابل منتوجات وسط أفريقيا ، فقبل عرضه ، ويؤكد الرواة أن العلاقات التجارية قد استؤنفت مع ولاية " بورنو " عن طريق فزان ، وبأن كثيراً من الرقيق الزنوج قد أرسلوا بذلك إلى صقلية [6] . غير أن كل هذه المحاولات لإنعاش الوضع الاقتصادي تظل محدودة ورهينة الوضع السياسي غير المستقر .

وفي سبيل تعزيز دخل الحكومة الأسبانية في طرابلس عمل الأسبان على ضمان احتكار الحركة التجارية ، ففرضوا الضرائب الفادحة على البضائع المنافسة الواردة من دول أخرى [7] ، مما أسخط

---

[1] أتيوري روسي: طرابلس ، مرجع سابق، ص 35 ، الباروني: الأسبان ، مرجع سابق ، ص 62 .

[2] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 91 .

[3] التليسي : حكاية مدينة، مرجع سابق ، ص68 .

[4] المرجع نفسه ، ص 64 .

[5] نفس المرجع والصفحة .

[6] شارل فيرو :الحوليات،مصدر سابق، ص 87 . كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 30 .

[7] التليسي : حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص 64 .

عليهم التجار الأوروبيون واشتكوا إلى الملك الأسباني لرفع الضرائب الباهظة عنهم ، كما قاموا بتحصيل للضرائب غير منتظمة من بعض القرى الواقعة على الساحل الغربي لطرابلس مثل جنزور والماية وزواغة [1] .

ولتعمير البلاد بالسكان وازدهار الحركة الاقتصادية فيها عملت الحكومة الأسبانية جاهدة على تقديم مشروع استيطاني يقصد من ورائه تعمير البلاد بالسكان المسيحيين وإرجاع الأهالي الفارين منها ، ففي 16 أكتوبر من سنة 1511م وزع في " كاتانيا " بصقلية منشوراً أعلن فيه نائب ملك صقلية هوجودي مونكادا مجموعة من الإغراءات قصد ترغيب الهجرة إلى طرابلس ***منها :***

1- سوف يقدم لكل من يرغب في السفر والسكن في طرابلس " المساكن الملائمة " .
2- تخصيص أراضي زراعية مناسبة لهم لغرض التعمير والإنتاج الزراعي .
3- يعفي من الضرائب أو الرسوم لكل عمل يقوم به لمدة عشر سنوات من تاريخ إنتاجه
4- كما أضاف إليها ميزة أخرى وهي الأهم تعكس مدى خبث المحتل في إسكان طرابلس بعناصر غير أخلاقية ، حيث شجع المجرمين والمساجين بالهجرة إليها مقابل إعفائهم من التهم المدنية أو الجنائية المنسوبة إليهم [2] .

وهكذا فإن الرعاع من المجتمع المسيحي هم من سيتخذ طرابلس قبلة له للاستيطان والفرار من المسؤوليات الملقاة على كاهله ، وسيطبعون المجتمع بثقافتهم وأخلاقهم المخالفة لكل الشرائع السماوية والثقافات والأفكار الوضعية.

يكشف لنا هذا المشروع الاستيطاني الأهمية التي كانت لمدينة طرابلس في مخططات الأسبان الحربية ، بحيث عملوا على تشجيع الهجرة اقتناعاً منهم باستحالة الدفاع عن طرابلس دون سياسة استيطانية [3] . غير أن الظروف الموضوعية كانت تصب في غير صالح هذا التوجه ، فمسألة الجهاد وروح المقاومة المشتعلة تظل رادعاً يصرف سكان صقلية المغامرين عن الاستجابة لذلك النداء ، وبذلك ظلت طرابلس رغم هذه العروض السخية لا يرغبها أحد لا من المسيحيين ولا من السكان المحليين . حين فشلت المخططات الاستيطانية ، عمل الاحتلال على تقديم عرض آخر عل من خلاله إعمار المدينة وإرجاع الحياة فيها إلى سابق عهدها ، فعملوا على استمالة السكان الأصليين بإطلاق سراح حاكم المدينة السابق الشيخ عبد الله بن شرف سنة 1520م ، وإرجاعه من منفاه للاستفادة منه في تهدئة الأوضاع ، وتوطيد العلاقة بين المحتل والأهالي [4] .

---

[1] أتيوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 61 .
[2] المرجع نفسه ، ص 37 .
[3] التليسي : حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص 64 ، 65 .
[4] نفس المرجع والصفحة ، وانظر أيتوري روسي : المرجع السابق ، ص 38 .

حيث تطلعنا رسالة من بالرمو بتاريخ 12 / يناير / 1523م بأن الشيخ عبد بن شرف حاكم طرابلس السابق قد أطلق سراحه وعاد إليها بعد سجن دام عشر سنوات [1] ، وأنهم – أي الأسبان – قد حفظوا له سيادته الشخصية ، وتم تنصيبه والياً على أكثر من 500 عائلة من السكان الطرابلسيين الذين رجعوا على إثره [2] ، ولتشجيعه ؛ ورغبة منها في عمران المدينة بالسكان أرسلت الحكومة الأسبانية المواد الأولية للإنشاء والتعمير كمساهمة منها في إعادة البناء ، فأرسلت الأخشاب وبعض المواد الأساسية الأخـــــــــرى ، والأمل المعقود كبير في أن يعود بتأثير الشيخ ومكانته الاجتماعية سائر السكان إلى المدينة وأن يعود البلد إلى حالته الطبيعية السابقة من الرخاء والازدهار [3] .

غير أن المعلومات معتمة حول هذه الفترة فالمصادر التاريخية وخاصة الإيطالية منها سكتت عن ما بعد هذه المرحلة فلم تسعفنا بمادة تاريخية عما كان يجري في طرابلس قرابة عقد من الزمان يبدأ من سنة 1517م إلى سنة 1525م حيث لم تذكر لنا إلا حادثة انتشار وباء الطاعون بين أفراد الحامية الأسبانية وبعض السكان المدنيين وأن هناك خسائر فادحة سجلت بين القاطنين فيها [4] . لذلك أصبح من العسير تتبع تسلسل حوادث الزمن التاريخية وربط أحداثها لغياب النصوص الصريحة

والظاهر أن سياسة الاسترضاء واللين التي نهجتها الحكومة الأسبانية بغية إرجاع الوضع الاقتصادي إلى حاله من التحسن والاستقرار قد باءت هي الأخرى بالفشل ، وذلك لسوء معاملتهم للسكان المدنيين الذين بمجرد رجوعهم " سحبت منهم جميع أنواع الأسلحة " [5] وتركوهم دون أي سلاح شخصي والسلاح في هذا البلد يرمز إلى الرجولة ، لذلك مقت السكان هذا الاحتلال ومقتوا هيمنة النصارى على المسلمين ، " فأخذوا يتسللون مرة أخرى للخروج من المدينة " [6] . إذ نجد في سنة 1524م أن أولئك الخمسمائة أسرة لم يبق منهم سوى ستين أسرة فقط ، بينما لا أثر لبقية الأسر حسبما يؤكد تقرير وفد فرسان القديس يوحنا الذين زاروها من السنة نفسها [7] .

---

[1] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص38 .

[2] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 67 .

[3] انظر أتيوري روسي : نفس المرجع والصفحة ، وبازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 95 ، 96 .

[4] أيتوري روسي : المرجع نفسه ، ص 37 ، وانظر بازامة : المرجع نفسه ، ص 102 ، وانظر الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 66 .

[5] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ،ص87.

[6] نفس المصدر والصفحة .

[7] بازامة : المرجع السابق ، ص 107 .

وبناء على هذه المعاملة السيئة [1] وتنفيذ الواجب الشرع الذي ينادي بالجهاد، نجد أن الشيخ عبد الله بن شرف حاكم المدينة السابق أخذ يتحين الفرصة ليظهر عدم خضوعه للأسبان بل نجده يفر أخيراً في سنة 1526م من المدينة ليلتحق بإخوانه المجاهدين المتمركزين في تاجوراء لينظما معاً هجوماً عنيفاً على الأسبان ويظهرا مقاومة باسلة مشرفة ضد العدو .

المقاومة المحلية

أدرك القائد الإسباني الكونت بدور دي نافارا أنه لن يهنأ له بال في طرابلس بسبب تعنت المقاتلين من المقاومين العرب الطرابلسيين ، لذلك رأى أن أفضل طريقة للحفاظ على إنجاز الاحتلال هو حماية هذا المشروع بوسائل دفاعية متطورة ، فأرسل إلى نائب ملك صقلية خطاباً يطلب فيه منه أن يرسل إليه المدافع والمنجنيقات والأقواس ، لدرء خطر الهجوم المتوقع من جانب عرب الدواخل [2] ، الذين قاموا لاسترداد طرابلس بهجوم عنيف في فبراير من سنة 1511م بقوة تصل إلى أربعين ألف مقاتل [3] ، مكونين من التشكيلات الوطنية التي حرصت المقاومة على تجهيزها لمباغتة العدو المحتل ، وقد استطاعوا من خلالها أن " يحدثوا اضطرابات في طرابلس " [4] ، فقاموا بمحاصرتها، وطلب قائد حاميتها " ديجو دي فيرا " النجدة والتوجيه من القائد السابق بدرو دي نافارا الذي كان حينها في جزيرة " لمبدوزا " فخف إليه على عجل على رأس جيش قوي لنجدته وأرسل إليه - على حد زعم إحدى الروايات – أن يهيئ له لغماً ضخماً لتفجيره عند الوصول لخلق نوع من البلبلة والفوضى في صفوف المقاتلين العرب ، واستطاع القائد ديجو بمساعدة بدرو الذي وصل في الوقت المناسب أن يردوا المقاومة بعد أن فجروا ذلك اللغم فتطايرت شرارته وأصابت جانباً من المقاتلين [5] مما اضطرهم بفك الحصار والرجوع إلى قواعدهم ومراكزهم الجهادية وأهمها مركز تاجوراء [6]. **وإن كان الباحث يشك** في صحة خبر اللغم وعدد المهاجمين الكبير الذي عجز عن افتكاك المدينة من أيدي العدو البالغ عدد حاميته خمسة آلاف مقاتل فقط ، نجد أن المبالغة في الأرقام وتفخيمها يبدو واضحاً في الروايات ، وهذا بطبيعة الحال يخدم الراوي الغربي أكثر مما يقدم حقيقة منصفة* .

---

[1] أتيوري روسي : المرجع السابق ، ص 45 .

[2] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 29 .

[3] نفس المرجع ، ص 35 .

[4] كوستانزيوبرنيا ، طرابلس ، مصدر سابق ، ص 30 .

[5] Perali , Laguerra di Tripoli del 1511 in un diario orvietano dell' epoca in (Bibliofilia) X IV, pag. 324 .
وانظر كذلك : أيتوري روسي ، طرابلس ، المرجع سابق ، ص 35 ، كوستانزيوبرنيا ، طرابلس ، مصدر سابق ، ص 30 .

[6] مابل لومس تود : أسرار طرابلس ، مرجع سابق ، ص53.

* للاستزادة انظر : الباروني ، الأسبان ، مرجع سابق ، ص60.

مركز المقاومة تاجوراء

اكتسبت بلدة تاجوراء أهمية بالغة في تاريخ عهد الاحتلال الأسباني لمدينة طرابلس [1]، ذلك أنها أضحت قاعدة متقدمة للمقاومين ، ومركزاً حربياً للحركة الشعبية المسلحة [2] ، وملجئاً لكثير من الطرابلسيين الذين لم يرضوا بالخضوع للحكم الأسباني [3] ، وأن اختيارها لشغل هذا المنصب الجلل لم يأت من فراغ ، فهي بلدة تقع إلى الشرق من طرابلس على مسافة 18 كم على شاطئ البحر تحيط بها واحة خصبة .

كما أنها تقع شرقي مدينة طرابلس لا في غربها ، مما يعني عدم وجود العدو خلف المقاومة في مدن أخرى قد تهدد ظهرها أو تحول بينها والصلة بالشرق العربي ، لهذا قرر المقاومون صلاحية تاجوراء لهذا الغرض فاتخذوها مركزاً دفاعياً لهم حتى نهاية الصراع بطرد المسيحيين الأسبان ومن بعدهم فرسان القديس يوحنا من طرابلس سنة 1551م أي بعد واحد وأربعون عاماً من الجهاد والقتال والمقاومة [4] . ولا نخص بحديثنا عن حركة المقاومة المحلية في تاجوراء فقط ؛ بل هناك مراكز مقاومة شعبية أخرى تأسست لبث الروح القتالية وتلبية نداء الجهاد في جنزور ، والماية ، والعزيزية ، والسواني ؛ بل أبعد من ذلك في غريان ومسلاتة [5] ، وغيرها . وهذا إن دل على شيء إنما يدل على رفض المستعمر الصليبي وأن روح الجهاد والمقاومة مستعرة ، وأن المقاومين لن يهدأو ولن يستسلموا بل جهاد وقتال ومقاومة [6] .

إن ما يعاني منه البحاث في هذه الفترة التاريخية أن المصادر التاريخية أحجمت عن طبيعة المقاومة ، وتشكيلاتها ، ودفاعها ، ووسائلها ، وامداداتها وتحالفاتها ، وغيرها من الأمور التفصيلية ، فكل الذي أمدتنا به يعد نتوفاً نفهم منها أن المقاومة كانت عنيدة ، بدليل أن الاحتلال الأسباني لم يستطع الخروج خارج أسوار المدينة لا في احتلاله ، ولا في معاملاته ، وأن قوتها منعت أية حركة منظمة للعدو تتجاوز الخط الأحمر المرسوم لها مما اضطره إلى استجلاب كل حاجياته من وراء البحار . [7]

طلب المقاومون المحليون النصرة والنجدة من إخوانهم المسلمين مشرقاً ومغرباً فكان ممن لبى نداء الواجب والضمير إخوانهم في تونس وتركيا [8] .

---

[1] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 27 .

[2] التليسي ، حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص64.

[3] كوستانزيوبرنيا، المصدر السابق ، ص36.

[4] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 80 .

[5] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ص 58 ، وانظر الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي ، مرجع سابق ، ص 287

[6] نفس المرجع والصفحة .

[7] نفس المرجع ، ص 87 ، التليسي ، حكاية مدينة ، مرجع سابق، ص64.

[8] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 58 .

ففي تونس : شعر السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد بن الحسن الحفصي أن الأسبان باحتلالهم لطرابلس سوف يكيدون له وأنهم سيتحينون الفرصة للقضاء على بلاده واحتلال أطرافها الشمالية وجزرها واقتطاع أجزائها ، لذلك أخذ يحتاط لذلك ويستعد للدفاع عن بلاده ، ورأى أن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم ، ومن هنا نجده لا يتوانى في تقديم يد العون والمساعدة لإخوانه ونصرتهم في موضوع الجهاد في طرابلس [1] ضد العدو المشترك فجمع جيشاً كبيراً بقيادة القائد محمد أبى الحداد شداد " قاضي توزر " الذي كان من أكبر قواد جيشه. تحرك الجيش ووصل إلى طرابلس ونزل خارج السور وانضم إليه المقاتلون والمقاومون الطرابلسيون وهاجموا المدينة في ذي الحجة سنة 916 هـ فبراير سنة 1511 م ويذكر القيرواني في كتابه : " أنه حصلت مبارزة بين القائد الحفصي وبين أحد قواد الأسبان ، فاحتضنه أبو الحداد وأخذه أسيراً ، ودام الحصار سبعة أشهر، ثم تفرق الجيش بموت قائده أبي الحداد [2] ، ولو قدر لهذا الجيش أن ينتصر في معركته ويطرد الأسبان من طرابلس لكان في هذا نصراً للأمير الحفصي كبير وتقوية لمركزه [3] .

والظاهر أن هذه المساعدة التي قدمها القائد الحفصي في تونس تأتي استجابة لنداء الاستغاثة الذي أطلقه المقاومون في طرابلس واستجابة للجهد المبذول من قبل أصحاب الطرق الصوفية الذين أعدوا العدة ونظموا الصفوف لأجل الإسهام في إعادة بلادهم من أيدي الأسبان فقد ذكر أن أكثر من مائة شيخ من شيوخ المنهج الصوفي بالبلاد الطرابلسية كانوا يطوقون داخل البلاد بل وفي البلدان المجاورة كتونس وغيرها يدعون العرب للجهاد ومهاجمة الأهداف الأسبانية [4] ، ويبدو أن هذه الدعوة وجدت استجابة في أغلب الأقطار المغاربية التي تعاطفت معهم ، وربما كانت إحدى الأسباب التي حركت السلطان أبو عبد الله محمد الحفصي في إعداد حملته سابقة الذكر لنجدة طرابلس [5] ويبدو أن الذي شجعه على اتخاذ هذا الموقف هو انتصارات المجاهدين في أطراف تونس في جربة وقرقنة على الأسبان [6] .

---

[1] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 31 .

[2] المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ، 1286هـ ، ص287.

[3] الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح ، مرجع سابق ، ص 288 .

[4] أيتوري روسي : ليبيا منذ الفتح ، مرجع سابق ، ص 151 .

[5] د. صالح السباني : ليبيا أثناء العهد الموحدي والدولة الحفصية ، مرجع سابق ، ص 475 .

[6] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 73 .

كما قام المقاومون الليبيون بتشكيل وفد من أهل طرابلس وتاجوراء للذهاب إلى أكبر دولة إسلامية حينها " الأستانة " عاصمة الدولة العثمانية التركية يطلعونهم على حقيقة الموقف ، ويطلبون منهم النصر والمعونة والنجدة وتخليصهم من نير الاستعمار الأسباني [1] .

أدركت الدولة العثمانية أن الصراع مع الأسبان ما هو إلا حلقة من سلسلة حلقات صليبية ، لذا انتدبت لهذه المهمة شخصيتان قياديتان جهاديتان معروفتان في البحر المتوسط ومهابتان الجانب في الدول الأوروبية ، وهما شخصيتا الأخوين عروج ، وخيرالدين بربروسا اللذين كان لهما تاريخ حافل من المصادمات الجهادية مع الأسبان في تونس منذ عام 1510م وقد شجعهما على ذلك الأمير التونسي محمد الحفصي وأعطاهما الأذن في استخدام " حلق الواد " قاعدة متقدمة لعملياتهما مع الالتزام بتقديم خمس الغنائم له [2] ، ومنذ ذلك الوقت أصبحا يغزيان ويهددان الممتلكات الأسبانية في شمال أفريقيا.

وفي سنة 1512م ظهرت أولى الإشارات إلى السفن التركية والجزائرية التي كانت تهدد الأسبان في طرابلس [3] ، وفي سنة 1515م هدد القائد بربروسا الأسبان في طرابلس [4] .

لقد ساعدت جملة عوامل القائد بربروسا من أن يتقدم نحو الساحل الشمالي لأفريقيا ويشكل رعباً للمسيحيين في طرابلس منها :

1. وفاة الملك الأسباني فرديناند الكاثوليكي سنة 1516م .
2. فقدان الكاردينال أكسيمنس Ximenes سنة 1517م .
3. إهمال الحكومة الأسبانية حملاتها المسلحة على أفريقيا والتغير في السياسة الأسبانية تجاه طرابلس ، وذلك بسبب الصراع الشديد على الحكم بين شارل المقدس وبين خصمه فرانصوا الأول [5]، وبسبب صراعاته في إيطاليا .
4. انضمام طرابلس إدارياً إلى نائب الملك في صقلية وذلك في سنة 1513م حيث أوفد نائب الملك النبيل الصقلي جيوفاني فرانشيسكوا باترنو للحكم باسمه فأقام فيها عدة سنوات [6] وخصص له مبلغاً مالياً مقداره 12 ألف دوكيا سنوياً لتغطية النفقات اللازمة لإدارتها والاحتفاظ بها [7] ،

---

[1] ابن غلبون : التذكار، مصدر سابق ،ص 67 ، النائب الأنصاري : المنهل العذب ، مصدر سابق، ص 199 ، شكيب إرسلان: حاضر العلم الإسلامي ، دار الفكر ، ط3 ، 1971م ، ص 137

[2] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 44 .

[3] نفس المرجع والصفحة .

[4] نفس المرجع والصفحة.

[5] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 66 .

[6] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 37 .

[7] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 42 . أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 37.

فأضعف بذلك قبضة الاسبان عليها ، لذا لم يتردد بربروسا في التقدم نحوها وتقديم يد العون والمساعدة لأهلها وأصبح قائد الحملات الجهادية والمقاومة ضد الاحتلال الأسباني ، فتمركز في تاجوراء ، وجعل منها بلدة محصنة ، وأضاف لمينائها برجاً دفاعياً لحماية ثغرها الصغير الذي كانت تؤمه وترسوا فيه سفن المقاتلين [1] ، وكان على معرفة تامة بأن أسوار طرابلس في بعض أجزائها ليست صعبة التسلق وأن بعضها قد فتح ثم رمم بالأخشاب والتربة الرملية فقط ، وبصفة خاصة تلك الأجزاء التي خربت لترمم بموادها القلعة ، وقد ظن أنه قادر على أن يعيد بنجاح أكبر محاولات افتكاك طرابلس [2] ، لذلك أصبح بربروسا شوكة تنغص جنب الحامية الأسبانية بصورة مستمرة [3] مما جعلها تعيش في خطر دائم ، وخاصة بعد أن بلغ أسطوله من القوة التي أصبحت تهابها قوى أوروبية كبيرة ، فكان أسطوله يضم عدد 80 قطعة بحرية مختلفة الأحجام والتسليح [4] ، ومتطوعين للقتال والجهاد من الشرق والغرب ، ودعم ومساعدات بحرية من سلطان القسطنطينية السلطان سليم الأول [5] .

أما عن دور مصر في تقديم العون للمجاهدين يذكر روسي " أن سلطان مصر حين الاحتلال الأسباني لطرابلس كان ضعيف جداً ، وبعيداً عن التأثير على مصير طرابلس " [6] .

نهاية الاحتلال الأسباني وتسليم طرابلس لفرسان القديس يوحنا

يبدو أن الحكومة الأسبانية قد أقلقها ما يقوم به المجاهدون من دفاع مستميت ومن عمليات خاطفة سريعة ضدها في طرابلس [7] ، وأقلقها أيضاً ما تحصل عليه المقاومون من دعم مادي ومعنوي من إخوانهم في القطر ومن الدول الإسلامية المختلفة ، في الوقت الذي كان فيه الملك شارل الخامس المقدس محتاج إلى تركيز كل جهوده في سياسته الداخلية ، ومن ثم السياسة الأوروبية ، فقد كان مشغولاً بمباحثاته بخصوص تنصيبه إمبراطورا لألمانيا وبحروبه ضد غريمه فرانصوا الأول ، كما أنه محتاج إلى المال ليغطي به مشروعه الانتخابي ، ومستاء من ضغط المقاومة في طرابلس وفشله في جربة وقرقنة ، وخوفاً من فقدان نفوذه السياسي والبطولي لو حاقت بجنده هزيمة في أفريقيا ، وخوفاً من تدخل القوة الشرقية في الصراع فتسحقه الأساطيل العثمانية المتفوقة على القوى المسيحية في

[1] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 61 .
[2] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 34 .
[3] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 71 .
[4] نفس المرجع والصفحة .
[5] أيتوري روسي : المرجع السابق ، ص 45 .
[6] نفس المرجع ، ص 29 .
[7] محمد أبو عجيلة ، النشاط الليبي ، مرجع سابق ، ص 53 .

الحوض الشرقي للبحر المتوسط [1] ، وفي الوقت الذي أصبحت فيه طرابلس تكلفه المال والرجال ولم تحقق له أي كسب مادي أو أدبي للتاج أو الخزانة [2] ، كل ذلك جعله يصرف أنظاره عن سواحل أفريقيا الشمالية وجعله يفكر جدياً في التخلص من المسؤولية المسيحية في طرابلس وذلك بالتخلي عنها لصالح قوة أخرى [3] تحل محل الاحتلال الأسباني وتقوم بالدور نفسه ، بل أكثر في خدمة المسيحية فكانت منظمة فرسان القديس يوحنا خير من يتجسد فيها هذا الأمر وكانت اللحظة المواتية للتخلص من هذا الإرث في أكتوبر سنة 1523م حينما أرسل المرشد الأكبر لمنظمة فرسان القديس يوحنا إلى شارل الخامس وفد يطلب منحهم جزيرة مالطا ، فأبدى الإمبراطور الأسباني ترحيباً بهذا الطلب ، واشترط عليهم أن تتولى المنظمة مهمة الدفاع عن قلعة ومدينة طرابلس [4] . وأصدر وثيقة التنازل عن مالطا والدفاع عن طرابلس في كاستيل فرانكو مينيتو في 23 - مارس – 1530م [5]، وقصده من ذلك تكوين جبهة دفاع أولى عن ممتلكاته في جنوب إيطاليا والتفرغ للاهتمام بمستعمراته في العالم الجديد - أمريكا - [6] ، والتخلص من تبعات هذه المدينة بصورة مشرفة [7].

وفي يونيو 1530م كان مندوبو المرشد الأكبر الذي انتقل إلى نيس ثم إلى سيراكوزه قد استلموا السيطرة على مالطا واتجهوا إلى طرابلس ، حيث استلموا من نائب الحاكم ، فرانشيسكو فلاسكيز Francesco Velasquez كشفاً بالمدفعية التي كانوا ملزمين بإرجاعها إلى الإمبراطور [8] . أما الأسلحة الأخرى والذخائر ، فقد اشترط عليهم الملك شارل بأن يشتريها الفرسان بثمن يقدر ويدفع لخزينة جلالته في مدى ثلاث سنوات [9] . وسرعان ما وصلت إلى طرابلس سفينتان تحملان العتاد والمؤونة وقافلة من الفرسان ، وفرقة من الجنود تحت قيادة جاسباري دي سانجوسا Gaspare di Sanguessa أول حاكم يوفد من المنظمة إلى طرابلس . وهكذا انتهى بهذه الطريقة الحكم المباشر للأسبان الذي دام عشرين عاماً في طرابلس [10] . وقد التزم سكان طرابلس

---

[1] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 70 .

[2] بازامة : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 103 .

[3] شارل فيرو : الحوليات ، مصدرسابق ، ص 89 .

[4] أيتوري روسي : طرابلس ، ص 50 .

[5] ايتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 52 .

[6] الباروني ، الأسبان ، المرجع السابق ، ص87 .

[7] المرجع نفسه ، ص79

[8] أيتوري روسي :المرجع السابق ، ص 53 .

[9] Bosio : Dell'istoria Della Sacra Religion et illustrissima miltia disan Giovanni Gierorslimitano (PAR.III) pp : 27 , 26 .

[10] أيتوري روسي : المرجع السابق، ص 53 .

نفس الموقف الجهادي من الفرسان ، بل لعلهم لم يكونوا يفرقون بين الجنسيين والاحتلاليين ، فقد كانوا في شرعتهم جميعاً نصارى لا فرق عندهم أن يكونوا من الأسبان أو من الفرسان [1] ، لذا وجب مقاومتهم وقتالهم .

ولعل النتيجة من وراء تخلي الإمبراطور الأسباني عن طرابلس للفرسان أو قل شرطه المجحف بالدفاع عنها يتحتم أن ينظر إليه على أنه هدية مسممة قدمت للديانة النصرانية [2] .

آثار احتلال طرابلس

أ- سياسياً

إن ما ربحته أسبانيا في حملتها على طرابلس هو الاستيلاء على مدينة خالية من السكان ظلت مهددة من جانب الوطنيين المقاومين خارجها طيلة فترة حكمهم لها ، مما اضطرهم إلى التنازل عنها للتخلص منها [3] ، فغادروها بعدد 23 سفينة من أصل 120 سفينة كانت قد غزت بها طرابلس ، وأربعة آلاف جندي فقط من أصل الثمانية عشر ألف جندي الذين كونوا جيش الحملة . وبالتالي لو أجرينا عملية حسابية أدركنا أن خسائر الأسبان في حملة طرابلس وجربه وقرقنة قد كلفتهم ما فوق العشرة آلاف جندي زيادة على معظم قوادها ، وعدد سبع وتسعين قطعة بحرية من الأسطول ." وهذا ليس بالنصر الذي توقعته الحكومة الأسبانية ولا هو بالمشجع لفرديناند ومن بعده شارل الخامس على تنفيذ خطتهما في قيادة حملات توسعية في الشمال الأفريقي أو حتى في الاحتفاظ ببعض المحطات المهمة في المنطقة فتخليا عن ذلك نهائياً " [4] .

ب- اجتماعياً :

زار الرحالة المغربي الحسن الوزان المعروف بليو الأفريقي مدينة طرابلس سنة 1518م وقال عنها : أنها قد أخذت تنتعش وتدب فيها الحياة ، غير أننا لا نجد في تقرير وفد الفرسان الذي زار طرابلس سنة 1524م أي فقط بعد ست سنوات من هذه الرواية المبنية على المشاهدة ما لا يتفق والقول بانتعاش المدينة ، فقد ذكر التقرير أن سكانها من الطرابلسيين لم يزد عددهم على ستين عائلة [5] بعد أن كان يقرب من عشرة آلاف نسمة في بداية الاحتلال كما ذكر ذلك التقرير الذي كتبه باتيستينو دي تونسيس الذي رافق الحملة [6] . إن الرقم الذي ذكره تقرير فرسان القديس

---

[1] التليسي : حكاية مدينة، مرجع سابق ، ص 67 .

[2] شارل فيرو : الحوليات ، مصدر سابق ، ص 92 .

[3] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ،ص 88 ، مابل لومس تود : أسرار طرابلس ، مرجع سابق ص 53 .

[4] بازامة : ليبيا ، ص 87 ، 88 .

[5] المرجع نفسه ، ص 93 .

[6] التليسي ، حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص 66 .

يوحنا ليس بالعدد الكافي لكي تنتعش بهم المدينة حتى تدب فيها الحياة ، وفي المقابل إن خروج السكان منها هو في الحقيقة تعمير لمناطق أخرى ، فقد زار الرحالة نفسه منطقة تاجوراء وقال عنها إنها كثيرة أشجار النخيل والبساتين ، وأنها صارت كبيرة عامرة بعد احتلال الأسبان لطرابلس وفرار كثير من سكانها إليها [1] .

ج- اقتصادياً

سجل في العهد الأسباني تدهور للنشاط التجاري ، وتوقف لأغلب نشاطات الحركة الاقتصادية التي اشتهرت بها طرابلس ، ذكرها المؤرخون الثقاة والرحالون الذين جاءوها من قبل ، فالأسبان لم يكونوا ذا عقلية اقتصادية ، فقد احتكروا سوق طرابلس لأنفسهم وفرضوا رسوماً جمركية عالية على الموردين الأوروبيين الآخرين تبلغ هذه الرسوم 50 ٪ مضافاً إليها رسوماً محلية أخرى ، في حين أنهم عفوا التجار الأسبان من أي رسم جمركي في مينائي طرابلس وبجاية ، وكان لهذه التصرفات من قبل الأسبان أثر سيء لا على التجار الطرابلسيين فحسب ، بل حتى على التجار البندقيين الذين كانت لهم مصالح تجارية واسعة مع طرابلس ، فاضطروا إلى مخاطبة الملك شارل الخامس بواسطة سفيرهم في أسبانيا Cornaro " كرنارو " ليعمل على إنقاذ الموقف بحمل سلطات الاحتلال في طرابلس على العدول عن هذا القرار الذي سيقضي على وحدة المسيحيين في الصراع المسيحي الإسلامي من طريق المنافع الاقتصادية الذاتية. [2]

وفي المقابل لعب ميناء مصراتة وغيره من الموانئ الساحلية الأخرى دوراً هاماً في إحياء ما كاد يموت من نشاط اقتصادي في البلاد ، وصار تجار السودان، ومراكب تجار البندقية يرتادون هذه الموانئ مما نتج عنه نقص في دخل الحكومة الأسبانية مما كانت تجنيه من ميناء طرابلس ، ولم يعد ما يجبى كافياً لإدارة البلاد والصرف عليها وسد حاجياتها [3] .

د- أما من الناحية الإعلامية والدينية

1 – على الجانب المسيحي

أثار حادث احتلال طرابلس بهجة في أوروبا المسيحية ، وخاصة في إيطاليا ، فقد دعا مندوب البلاط البابوي في " بولونيا " ، فرانسيسكو أليدوس Francesco Alidosi المسيحيين إلى تنظيم مظاهرة كبيرة تعبيراً عن فرحتهم وبهجتهم باحتلال مدينة تسمى طرابلس البربرية ، وهي

[1] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 64 .

[2] الباروني: الأسبان ، مرجع سابق ص 64 . بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 101 . أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 36

[3] الباروني : المرجع نفسه ، ص 65 . التليسي ، حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص 64 . أيتوري روسي : المرجع نفسه ، ص 37 .

أرض عـامرة بالسـكان [1] ، كمـا أن فرحـة سـكان إيطاليـا الجنوبيـة ، وصـقلية ، ومالطـا كانـت عميقة فقد أنشئ في صقلية وسام تذكاري أو ميدالية تذكارية بالخصوص [2] ، وفي روما العاصمة المسيحية الكاثوليكية ، احتفل في يوم 10 أغسطس بسقوط طرابلس ، وأدى سكانها صلاة الشكر [3] ونظموا موكب ديني ، وكان استقبال هذا النبأ عظيماً يتناسب مع ما كانت تتمتع به طرابلس من سمعة باعتبارها مدينة غنية وقوية بحصونها . [4]

وكان من بين التهاني التي وصلت إلى فرديناند الملك الكاثوليكي للإشادة بهذا الحدث السعيد تلك التهنئة التي كان قد وجهها المرشد الأكبر في رودس أميريكو دامبوزو Emerico d'Amoboise الذي ما كاد يبلغ باحتلال طرابلس من قبل نائب ملك صقلية حتى بادر على الفور إلى تقديم التهاني [5] وهو نفس ما قام به دوج البندقية [6] ، ودعاه أن يواصل حملاته على أفريقيا حتى مصر على أمل أن يتمكن هناك من ضم قواته – فرسان القديس يوحنا – إليه خدمة الله في هذه المهمة السامية [7] .

إن هذا الصدى الذي أحدثه الاستيلاء على مدينة طرابلس مهما كانت أهمية المدينة الحربية والتجارية ، لا نجد له أي مبرر سوى أنه رد فعل نفسي عام كان مسيطراً على المسيحيين منذ احتلال القوى العثمانية المسلمة لمدينة القسطنطينية عام 1453م عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ومدخل القارة الأوروبية الشرقي [8] .

من خلال هذه الروايات يتضح لنا جلياً النظرة التي نظر بها المسيحيون إلى احتلال مدينة طرابلس من قبل قوات الأسبان ، وأقل ما توصف به أنها تعكس التعصب الديني المسيحي المتطرف الذي يذهب إلى حمل المسيحيين على الابتهاج بنصر تحققه دولة أجنبية عنهم في بلاد لا يعرفون عنها إلا أنها كثيفة السكان [9] .

---

[1] أيتوري روسي : طرابلس ، مرجع سابق ، ص 28 ، وانظر :
G.pantanelli (Tripoli in un Documento Bolognese del secolo XVI) Bologna . 1912 .

[2] أيتوري روسي : نفس المرجع والصفحة.

[3] بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 71 .

[4] أيتوري روسي : نفس المرجع والصفحة .

[5] نفس المرجع والصفحة .

[6] التليسي ، حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص 63 .

[7] أيتوري روسي : المرجع السابق ، ص 28 ، بازامة : المرجع نفسه ، ص 72 .

[8] بازامة ، المرجع نفسه ، ص 73 .

[9] المرجع نفسه ، ص 71 .

2- على الصعيد العربي الإسلامي

أثار سقوط طرابلس شعور بالأسف في البلدان الإسلامية المجاورة كتونس، ومصر ، والدولة العثمانية [1] ، **ففي تونس** كانت تتوالى الأنباء على أن المسلمين هناك غاضبون ثائرون ضد المسيحيين ، وقد عزموا القيام بقتل جميع المسيحيين في بلادهم ، ولكن السلطات الحفصية منعتهم من ذلك [2] ، وأنهم قد فرحوا لهزيمة الأسبان في جربة [3] . **أما في مصر** فقد كتب لنا مارين سانودو Marin sanudo بتاريخ 24 نوفمبر سنة 1510م ، نقلاً عن أحد القادمين من القاهرة ودمياط أن العرب المغاربة في الإسكندرية ما كادوا يعلمون بنبأ سقوط طرابلس في يد الجيش الأسباني حتى تجمعوا في المسجد وتشاورا في الأمر وهجموا على فندق الأسبان هناك وألحقوا به أضراراً فادحة ، ولكن أمير الإسكندرية عالج الموقف وأصلحه [4] وتأسفت السلطات المصرية المملوكية لأصحاب الفندق ، بل وقامت بإصلاحه على نفقة الخزينة المصرية ، وهذا الموقف من حكام المماليك لم يكن غريباً عنهم ، فعندما استنجد سلاطين وحكام المغرب العربي بحاكم مصر قنصوة الغوري المملوكي وطلبوا منه الانضمام إليهم في حلف ضد الأسبان والبرتغاليين وطرد تجارهم المقيمين في بلاده ، والعمل على غلق كنيسة القيامة في وجه حجاجهم ماطل في ذلك ولم يستجب لهذه النداءات [5] لأنه كان مرتبطاً بمعاهدة صداقة وحسن تعامل مع الأسبان [6] ، كما أن الاحتلال الأسباني لطرابلس لم يكن يمثل خطورة على مصر في ذلك الوقت لبعدها عنه ، إضافة إلى أنهم كانوا أضعف ما يمكن من القوة والاستعداد لصد أي هجوم [7] ، تاركين مسئولية إيقاف هذا الزحف وإنهاء أمر الاحتلال إلى أهل البلد ذاتهم [8] .

لقد أظهر الغزو الأسباني على طرابلس بصورة جلية وحدة المشاعر الإسلامية وارتباط العالم الإسلامي بمصير واحد ، لا بالنسبة للمسلمين أنفسهم فحسب ، بل بالنسبة للنظرة التي ينظر بها المسيحيون إليهم [9] .

---

[1] أيتوري روسي : المرجع السابق ، ص 28 .

[2] أيتوري روسي : ليبيا منذ الفتح ، مرجع سابق ، ص 147 .

[3] أيتوري روسي ، طرابلس ، مرجع سابق ، ص 31 .

[4] أيتوري روسي ، المرجع نفسه ، ص 29 .

[5] أحمد دراج :المماليك والإفرنج من القرن 9 هـ / 15م ، دار الفكر العربي ، القاهرة، 1961م ص 129.

[6] أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ، 1492م/1792م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر . د.ت ، ص 71 .

[7] إبراهيم حسن شحاتة : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ،دار المعارف، الاسكندرية، 1981م ص 103 .

[8] بازامة ، ليبيا ، مرجع سابق ، ص 73 .

[9] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، مصدر سابق ، ص 10 .

هـ- الآثار المعمارية

اهتم الأسبان كثيراً بهذا الجانب ، بل إن اهتمامهم به فاق جميع جوانب المناحي الأخرى ، فالجهد الذي بذله الأسبان في هذه الفترة تركز على النواحي المعمارية ، وحصرياً تركز على إعادة بناء القلعة وتحصينها وإنشاء بعض الحصون والأبراج الأمامية للدفاع عن الميناء [1] دون المدينة ، ومن أجل القيام بهذا قاموا بجمع الركام الناشئ عن الدمار الذي لحق بالمدينة والخراب الذي أصاب السور مسافة تبلغ مائتي خطوة وعملوا على تحصين القلعة بأسوار قوية ومدفعية ضخمة ، ويسود الاعتقاد بأنه في هذه المناسبة التي تم فيها إصلاح حائطي البرجين القائمين من جهة المدينة بمحاذاة التحصينات القوية لطرابلس من الجهة الجنوبية الشرقية . أطلق الأسبان المحتلون الاسم على هذين البرجين العظيمين الركن الشرقي المطل على البحر وقد أطلق عليه ركن القديس يعقوب ، تخليداً لذكرى تاريخ اليوم الذي سقطت فيه مدينة طرابلس ، والركن الغربي الذي يشبه مقدمة السفينة سمي ركن القديس جورج . أما في الوسط حيث يوجد حتى الآن مدرج المدخل الذي يؤدي إلى القلعة فقد كانت ساحة القديس بربرا [2] .

وقد جدد في عهد الأسبان كذلك حصن القديس بطرس الذي يحمي الميناء ، والذي اتخذ فيما بعد اسم الحصن الأسباني ، كما تم بناء برجين مربعين من جهة البر على مسافة غير بعيدة من المدينة لحمايتها من المقاومين الطرابلسيين القادمين من البر ، هذا وقد شعر الأسبان أن التحصينات التي قاموا بها في مدينة طرابلس غير كافية لرد أي هجوم محلي عربي أو تركي مسلم ، ولذا صرفوا كثيراً من عنايتهم لإضافة أبراج أخرى للدفاع عن الميناء [3] ، فيرجح أن يكون قد أنشئوا سنة 1530م فوق الجزيرة الغربية برج المندريك [4] عند مدخل الميناء حيث كانت توجد منارة ميناء مدينة طرابلس ، كما اهتم الأسبان بالناحية الجنوبية من سور طرابلس أكثر، لأنهم كانوا يحسبون حساب التل الجنوبي الذي يسمونه الآن " الظهرة " لأنه مكان مرتفع فإذا ما وضع عليه مدفع أصبحت المدينة في خطر [5] . ومع ذلك فإن الاحتلال الأسباني أقام على كل باب من أبواب طرابلس أبراج عالية حصينة وهي " باب زناته " جنوب غرب المدينة وباب البحر ، وباب هوارة شرق المدينة ، وباب العرب الذي يفتح نحو الجنوب [6] .

---

[1] التليسي : حكاية مدينة ، مرجع سابق ، ص 67 .

[2] كوستانزيوبرنيا : طرابلس، مصدر سابق ،ص 29 . بازامة : ليبيا ، مرجع سابق ، ص 88 ، 89 .

[3] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 74 .

[4] كوستانزيوبرنيا : طرابلس ، ص 29 .

[5] الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي ، مرجع سابق ، ص 291 .

[6] الباروني ، المرجع السابق ، ص 73 .

وما هذه التحصينات ، والأبراج ، والزيادة في الاهتمام بالترميم وغيرها من أعمال الإنشاء والبناء التي حدثت في طرابلس ما تمت إلا بعامل الخوف والرعب من الهجمات القتالية المتكررة التي كان يبديها المقاومون الطرابلسيون ، مما جعل العدو يعيش دائماً في هاجس مستريب وخوف من القتل أو الوقوع أسرى في أيدي العرب أو الأتراك المجدين في تحرير هذا البلد [1] .

الخاتمة

يعد الاحتلال الاسباني لطرابلس حلقة من مجموع حلقات المد المسيحي للمنطقة العربية والاسلامية ، فهو مع كونه صراع سياسي بين قوتين كبيرتين العثمانية / والاسبانية ، فانه لا يخلوا من التأثير الأيديولوجي لكل منهما الاسلام / والمسيحية . أثبت مجريات الأحداث أن عملية الغزو كان معدا لها الاعداد الجيد ، ومرتبا لها من حيث التجهيز والخطط والقيادة ، وأن المعلومات المخابراتية التي سبقت الغزو كانت حافزا مهما من حيث تحديد توقيت التحرك والغزو. أ ثبتت الدراسة أن طرابلس عانت من الاحتلال الذي ظل جاثما عليها عقدين من الزمان ، ولهذا تحركت المقاومة وأبدي المقاومون نوعا من التصلب والجلد ، واستعانوا بالدولة العثمانية واستطاعوا أخيرا تحقيق نتائج طيبة ، حيث ترك الاسبان طرابلس تحث ضغط المقاومة وسلموها لفرسان القديس يوحنا الامر الذي أدخل طرابلس في حلقة جديدة من الصراع الدولي مما سنفرد له حيزا اخر من الدراسة في وقت لاحق بإذن الله .

[1] الباروني : الأسبان ، مرجع سابق ، ص 72 .

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر

1. ابن أبي دينار القيرواني ، محمد بن أبي القاسم : المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ، 1286هـ .
2. التيجاني ، أبو عبد الله بن محمد : رحلة ، تقديم وتحقيق ، حسن حسني عبد الوهاب المطبعة الرسمية تونس ، 1958م
3. شارل فيرو : الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي ، ترجمة د. محمد عبد الكريم واافي ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان طرابلس ، ليبيا ، ط3 ، 1984م
4. الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1985م .
5. العياشي ، أبو سالم عبد الله بن محمد : ماء الموائد أو الرحلة العياشية طبعة حجرية ، فاس ، 1316هـ.
6. ابن غلبون ، أبو عبد الله محمد بن خليل : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار،تحقيق الطاهر الزاوي ، القاهرة، 1349هـ.
7. كوستانزيوبرنيا : طرابلس من 1510- 1850 م ، تعريب : خليفة التليسي،الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان،مصراته،ليبيا ،ط1 1985م.
8. محمد مخلوف:تتمة شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،دار الفكر، د.ت.
9. محمود بن سعيد مقديش الصفا قسي : نزهة الأنظار في عجائب التاريخ والأخبار ، تحقيق ،علي الزاوي محمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1988م.
10. النائب الأنصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، مكتبة الفرجاني، طرابلس ، د.ت.
11. الناصري الذرعي ،الرحلة الناصرية ، طبعة حجرية ، فاس ، 1320هـ .

ثانيا : المراجع العربية والمعربة

1. إبراهيم حسن شحاتة:أطوار العلاقات المغربية العثمانية ،دار لمعارف،الاسكندرية، 1981م.
2. أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ، 1492م/1792م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر . د.ت .
3. أحمد دراج :المماليك والإفرنج من القرن 9 هـ / 15م ، دار الفكر العربي ، القاهرة، 1961م
4. أيتوري روسي : طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا ، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ، ليبيا ، ط2 ،1985م.
5. أيتوري روسي : ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م ، تعريب : خليفة محمد التليسي دار الثقافة ، بيروت ، 1974م .

6. حسن السائح : الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء 1986م .
7. خليفة الأحول : يهود مدينة طرابلس ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس ، ليبيا ، 2006م.
8. خليفة محمد التليسي:حكاية مدينة طرابلس ، دار العربية للكتاب، ليبيا ، تونس ط2 ،1985م
9. سامح عزيز : الأتراك والعثمانيون ، دار عمار ، الأردن .
10. شكيب إرسلان: حاضر العلم الإسلامي ، دار الفكر ، ط3 ، 1971م .
11. صالح السباني : ليبيا أثناء العهد الموحدي والدولة الحفصية ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا،ط1 2006م
12. الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا،دار المعارف،مصر، 1963م
13. عمر علي بن إسماعيل :انهيار حكم الأسرة الفره مانلية في ليبيا ، 1795م - 1835 م ، نشر مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ليبيا ، 1996م .
14. عمر محمد الباروني : الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس ، مطبعة ماجي ، طرابلس ، 1952م
15. مابل لومس تود : أسرار طرابلس ، ترجمة : دار الفرجاني للنشر ، طرابلس ، ليبيا ، ط1 ، 1968م .
16. مارمول كرنبال : إفريقية ، ترجمة ، محمد حجي ، محمد زنيبر ، وآخرون ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، 1984م .
17. محمد أبو عجيلة : النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القره مانلية منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ليبيا ، ط1 ، 2006م.
18. محمد بازامه : ليبيا في عشرين سنة من حكم الأسبان 1510- 1530، منشورات مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ليبيا ،1963م.
19. محمد المتوني، ملامح من تطور المغرب العربي في بدايات العصور الحديثة،الرباط المغرب،د.ت .
20. .محمود أبوصوة : مقدمة في تاريخ المغرب الاجتماعي والاقتصادي ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، ليبيا ، 1992م.
21. محمود حسن منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي ، نشر مكتبة الفكر، ط 2 القاهرة ، 1978م.

ثالثا: المراجع الأجنبية

1. **Bosio** : Dell'istoria Della Sacra Religion et illustrissima miltia disan Giovanni Gierorslimitano (PAR.III).
2. **F . Braudel** (Les Espagnols et L' Afrique du Nord de 1492 a 77) in (Revue Africaine) 1928.
3. **G.pantanelli** (Tripoli in un Documento Bolognese del secolo X VI Bologna . 1912.
4. **M.Lenghena**:Linpresa Di Tripoli Nel 1510 R.d'Afriqa 1912
5. **Perali** , Laguerra di Tripoli del 1511 in un diario orvietano dell' epoca in (Bibliofilia).
6. **V.S.Gianno** ,Tripoli nelle tradizioni storico – commerciali (Atti del ceogar . dell 'Asmara .